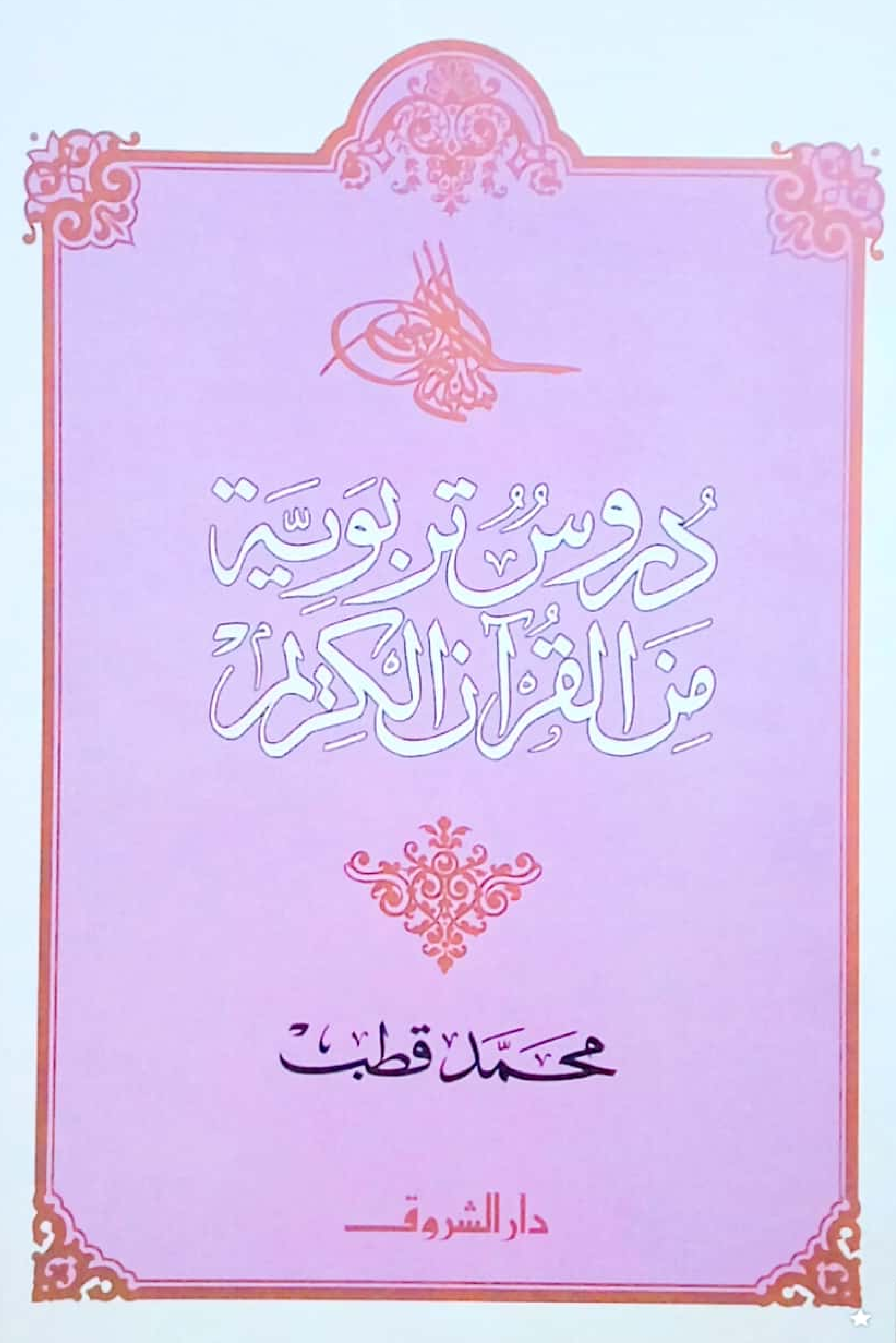


دروس تربوية
من القرآن الكريم
محمد قطب
دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م
الطبعة الثانية
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع ٢٠٠٦/٢٣٤٥
ISBN 977-09-1016-0

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

محمد قطب



دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩).

صدق الله العظيم

المحتويـات

مقدمـــة

كان هذا الكتاب فى أصله مجموعة من المحاضرات ألقيت بإحدى مدارس تحفيظ القرآن بجدة بالمملكة العربية السعودية بعنوان «دروس تربوية من القرآن الكريم» . وقد رغب بعض الذين استمعوا إليها أن تجمع فى كتاب ليطلع عليها من لم تتح له فرصة الاستماع إليها ، فجمعتها فى هذا الكتاب استجابة لهذه الرغبة الكريمة .

وقد كنت أهدف من هذه المحاضرات إلى أهداف معينة ، منها بيان أن القرآن الكريم ليس خطابا «تاريخيا» سواء إلى الأمة الإسلامية أو البشرية كافة ، بمعنى أنه نزل استجابة لظرف تاريخى معين فى حياة البشرية ، فينتهى دوره حين يتغير الظرف . إنما هو خطاب دائم للأمة الإسلامية وللبشرية كافة من مبعث رسول الله ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وأن أمور حياتنا تتغير وتتحور ، وتتخذ أشكالا جديدة على الدوام ، ولكن محاورها الرئيسية لا تتبدل ولا تتغير ، وأن مفاتيح قضايانا الرئيسية هى فى هذا الكتاب المعجز ، منذ نزل إلى قيام الساعة ، وأن علينا أن نتدبر هذا القرآن على الدوام بعيون مستبصرة ، وقلوب متفتحة ، لنضع أيدينا على هذه المفاتيح ، ونستخدمها فى حل قضايانا التى تتخذ صورا متجددة على الدوام ، ولكنها لا تتغير فى أسسها وجواهرها .

كذلك كان من هدفى أن أبين أن «التربية» مجال واسع يشمل كل كيان الإنسان ، وكلّ جوانب حياته ، ولا ينحصر ـ كما يظن بعض الناس ـ فى بعض المواعظ أو الدعوة إلى سلوكيات معينة تتحلى بمكارم الأخلاق ـ وإن كان هذا يشكل أساسا مهمّا فى العملية التربوية ـ وأن الجانب السياسى والجانب الاقتصادى والجانب الاجتماعى والجانب الفكرى والجانب الثقافى كلها داخلة فى صميم العملية

التربوية، وداخلة من ثم فى سعينا لتنشئة «الإنسان الصالح» الذى يريد الله له ـ من خلال كتابه المنزل ـ أن يقوم بعمارة الأرض على هدى المنهج الربانى، وأننا فى تدبرنا لآيات القرآن ينبغى أن نبحث عن الدروس التربوية التى يشتمل عليها القرآن فى كل هذه المجالات، ليكون تدبرنا واعيا ومثمرا، وليكون القرآن فاعلا فى حياتنا كما كان فى حياة القرون الأولى التى حققت فى عالم الواقع قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ومعلوم أن الأمة التى وصفها الله بهذا الوصف إنما خرجت من بين دفتى هذا الكتاب.

وإذا كانت الأمة قد أغمضت أعينها فى الفترة الأخيرة عن كتابها، وتقاعست عن أداء تكاليفه، ففقدت كثيرا من خيريتها، وتكالب عليها أعداؤها يريدون أن يجتثوا الإسلام من جذوره، فلا سبيل لها إلى رد كيد أعدائها، والعودة إلى تسنم مكانها الذى أخرجها الله من أجله إلا بالعودة إلى تدبر الكتاب ببصائر واعية وقلوب متفتحة، وتطبيقه فى عالم الواقع ليكونوا كما قال الله لهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وليعود لهم التمكين الذى وعدهم به الله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

وما كانت هذه المحاضرات إلا مجرد نماذج تشير إلى الطريق.

اللهم وفقنا إلى تدبر كتابك، والعمل بما يرضيك عنا، وما التوفيق إلا من عند الله.

محمد قطب

الدرس الأول

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ٢٠٠].

* * *

اخترنا لهذه المجموعة من المحاضرات عنوان: «دروس تربوية من القرآن الكريم» ومن نافلة القول أن نقول إن كتاب التربية لهذه الأمة هو كتاب الله، فهو الذى ربى

هذه الأمة التى وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذه الأمة لم تخرج من ذات نفسها، وإنما أخرجت إخراجا. وفى العبارة القرآنية إشارة واضحة إلى هذا المعنى. ولقد أخرجها الله لتؤدى مهمة معينة فى حياة البشرية، وأرسل إليها الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام ليربيها على مائدة القرآن، لكى يهيئها لأداء هذه المهمة الفذة التى أخرجها من أجلها.

فى الكتاب المنزل نجد منهجا متكاملا للتربية الإسلامية(١)، ومنه استمدت هذه الأمة شخصيتها الفذة التى كانت لها، والتى نرجو أن تستعيدها مرة أخرى على هدى هذه الصحوة التى نعيشها اليوم، والتى نرجو من ورائها الخير الكثير إن شاء الله.

هذه الشخصية المتميزة، هذه الآفاق العالية التى وصل إليها الصحابة رضوان الله عليهم، ومن تبعهم بإحسان، تلك الهمم العالية، تلك المنجزات الخارقة التى حققتها هذه الأمة فى واقع الأرض.. كلها نابعة من هذا الكتاب.

ولقد تمت التربية على يد رسول الله ﷺ، ولكنها تمت على ضوء هذا الكتاب. من آياته البينات. من كل ما ورد فيه من قصة أو مثل أو توجيه سياسى، أو توجيه اجتماعى، أو توجيه أخلاقى، أو توجيه فى أى مجال من مجالات الحياة.

تلك بديهية، ومع ذلك فكثيرا ما ننسى الأمور البديهية، ونروح نسأل أنفسنا: من أين نستمد منهجنا التربوى؟!

نستمده - بداهة - من كتاب الله. ونستمده من الواقع الذى عاشته هذه الأمة يوم أخذت الكتاب بالجدية الواجبة له، ومنحته كل نفسها، فمنحها الخلود...

* * *

فى كل سورة من سور القرآن وفى كل آية من آياته درس تربوى، ولا تتسع محاضراتنا إلا لنماذج من هذه الدروس أخذنا منها لهذا الدرس الآيات الأخيرة من

---

(١) راجع إن شئت كتاب «منهج التربية الإسلامية» فى جزأين.

سورة آل عمران التى تبدأ بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

يبدأ الدرس بوصف هؤلاء الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ، وامتلأت قلوبهم بالإيمان، ورسخ هذا الإيمان فى قلوبهم حتى صار هو حياتهم.. يصفهم سبحانه وتعالى هذا الوصف الجميل الشفيف: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ..** ﴾. الوصف الأول أنهم من أولى الألباب. والوصف الثانى هو أنهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم.. أى فى جميع أحوالهم.. فى كل ساعاتهم الواعية.. فكيف كانوا يذكرون الله؟ إنه هنا الدرس التربوى.. هل كانوا يذكرونه ذكر اللسان وحده؟ وهل يكفى ذكر اللسان وحده للقيام بالمهمة التى ألقيت على عاتق هذه الأمة، والمنصوص عليها فى آيات من كتاب الله؟ منها: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومنها: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]؟

هل يكفى لهذه المهمة: مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. مهمة الشهادة على كل الأمم.. هل يكفى الذكر باللسان ليوفى مقتضيات هذه المهام العظام؟

الذى نعرفه من تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يذكرون الله باللسان.. ولكن ليس باللسان وحده.. فهل كانوا يذكرونه على طريقة بعض الذاكرين حين يمسكون بالمسابح ويرددون اسما من أسماء الله الحسنى مرة، أو مائة مرة، أو ألف مرة، أو ما لا أعلم من الأعداد؟! هل أثر عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يذكرون الله على هذا النحو الذى صار يذكره به بعض المتأخرين؟! كلا!

لقد كانوا يذكرون الله باللسان وبالقلب.. ولكن هل كانوا يذكرونه باللسان والقلب وحدهما؟ وهل يكفى ذكر اللسان والقلب وحدهما للقيام بالمهام التى ألقيت على عاتق هذه الأمة؟

ولنعلم أن هذه الأمة كلفت غير ما كلفت به الأمم المؤمنة السابقة كلها. فكل أمة من الأمم السابقة قال الله عنها: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]. وهذا تقرير من عند الله سبحانه وتعالى أنهم لم يكلفوا إلا هذا. أن يعبدوا الله وحده مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.. وهذا هو الدين القيم الذى كلفوا به.

أما هذه الأمة فقد كلفت ذلك التكليف ذاته؛ أن تعبد الله وحده بلا شريك مخلصة له الدين، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم وتحج، ثم كلفت - بالإضافة إلى ذلك - أن تدعو لدين الله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وأن تجاهد فى سبيل نشر الدعوة ليصل هذا النور الربانى إلى كل آفاق الأرض التى يستطيع البشر أن يصلوا إليها: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج: ٧٨].

إذن لقد كلفت هذه الأمة تكاليف إضافية غير الأمم السابقة.. ولا عجب فى ذلك. لأنه بعد كل رسول أرسل إلى أمة من الأمم السابقة كان الله يرسل رسولا جديدا ليرد البشرية إلى الجادة كلما انحرفت.. أما بعد رسول الله ﷺ فلا نبى ولا رسول، ولا رسالة، ولا كتاب. فكان من اللازم أن تقوم أمة محمد ﷺ برسالته بعد أن يقبض إلى ربه. فمن أجل هذا كلفت هذه الأمة ما كلف به الرسول عليه الصلاة والسلام: الدعوة والجهاد لنشر هذا الدين فى كل الأرض. فإذا أدركنا هذه المهام التى ألقيت على عاتق هذه الأمة، فلننظر إلى الأدوات التى تعينها على ذلك.

هل يكفى الإيمان وحده للقيام بهذه المهام؟ هل يكفى ذكر الله باللسان والقلب؟ أم لا بد من ذكر آخر، هو الذى بينته الآيات؟ فلننتقل مع الآيات خطوة خطوة.

هؤلاء أولو الألباب ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ.. ﴾، وهذا التفكر هو جزء من مقتضيات الإيمان.. يتفكرون فى ماذا؟ ﴿ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.. فيهديهم التفكر إلى أن السموات والأرض خلقتا بالحق، ولم تخلقا باطلا.. فيسرعون بإعلان ما جال فى خاطرهم وما ملأ قلوبهم، يقولون: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾! فإن النظر الدقيق فى هذا الكون

يملأ القلب بهذه الحقيقة: أنه لا يمكن أن يكون خلق هذا الكون باطلا. الكون بعظمته المعجزة.. الكون بدقته المعجزة.. بأجرامه التى تبلغ ملايين الملايين.. لا يصطدم اثنان منها ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. والدقة المعجزة فى جريان هذا الفلك بكل أجرامه التى لم يحصها محص من البشر حتى اليوم، وكلما اخترع منظار أبعد كشف من الكون جديدا، ولا يزعمْ أحد أنه وصل إلى كل أغوار الكون أو أدرك مداه.. الكون بعظمته تلك ودقته المعجزة تلك.. يخلق باطلا؟!.. يخلق عبثا؟!.. إنما يهدى الإيمان العقل البشرى إلى أن هذا الكون لم يخلق باطلا، إنما خلق بالحق. يقول المولى تبارك وتعالى فى الآية الكريمة فى سورة ص (٢٧): ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أما الذين آمنوا فيعلمون علما يقينيا أن الكون لم يخلق باطلا ولم يخلق عبثا.. وحين يصلون إلى هذه النقطة: أن الكون بسمواته وأرضه خلق بالحق، يتطرق تفكيرهم إلى أن هذا الحق لا يتمثل ولا يتحقق لو أن الحياة الدنيا هى نهاية المطاف. لأنهم يرون بأعينهم أن هناك ظلمة يظلون ظالمين إلى آخر قطرة من حياتهم، ويموتون وهم ظالمون.. فلو كانت الدنيا هى نهاية المطاف فهل حق الحق؟! لا! وهناك مظلومون يظلون مظلومين إلى آخر قطرة من حياتهم، ويموتون والظلم واقع عليهم.. فلو كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف، فهل حق الحق الذى خلقت به السموات والأرض؟ لا! إذن يهديهم تفكيرهم إلى أن يؤمنوا باليوم الآخر الذى يبعث فيه الناس كى يحاسبوا على ما اقترفوا فى الحياة الدنيا، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.. وعندئذ يحق الحق..

فالإيمان الذى تفكروا به فهداهم إلى أن السموات والأرض خلقتا بالحق ولم تخلقا باطلا.. هداهم كذلك إلى الإيمان باليوم الآخر. والإيمان باليوم الآخر يقتضى الإيمان بالجنة والنار.. بالبعث والنشور والعذاب والثواب.. عندئذ يسرعون فيتضرعون إلى ربهم أن يقيهم حر النار.. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. وهذا أول ما يتضرعون به حين يصلون إلى اليقين بأن هناك يوما يبعث فيه الناس فيحاسبون على أعمالهم.. يستعيذون من النار ويتضرعون إلى الله أن يقيهم من عذابها..

ثم يزدادون يقينا وفكرا.. إن الذى يدخل النار يناله الخزى.. فيتضرعون إلى

الله أن يبعدهم عن هذا الخزى: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾. إنهم يؤمنون بقوة الله وعظمته وقدرته المطلقة، ويؤمنون بأنه لا يستطيع أحد أن ينصر الكفار من الله، أو يقيهم من عذابه، فيستعيذون بالله من ذلك، ويتضرعون إليه أن يدخلهم الجنة.

وكأنهم يبسطون أمام ربهم المؤهلات التى تؤهلهم لدخول الجنة، أو تؤهلهم لتلك الضراعة التى يأملون بها دخول الجنة: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا** ﴾. والمنادى هو رسول الله ﷺ، ناداهم للإيمان.. يقولون: ﴿ **فَآمَنَّا** ﴾. ويقول أهل اللغة إن «الفاء» تفيد التعقيب السريع. كأنهم يريدون أن يقولوا: بمجرد أن سمعنا المنادى ينادى آمنا. ويتقربون بهذه المؤهلات بين يدى الله سبحانه وتعالى يقولون: ارأف بنا وارحمنا واقبل ضراعتنا، لأننا بمجرد أن سمعنا المنادى ينادى آمنا: ﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ** ﴾. ثم يتضرعون إليه بما وعد سبحانه المحسنين: ﴿ **رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾.

وواضح لكل من يقرأ الآيات أنها ضراعة حارة مخلصة تصدر عن قلوب مؤمنة ملأها الإيمان.. تتوسل إلى الله سبحانه وتعالى.. تتضرع إليه.. تتزلف إليه أن ينقذها من النار وأن يدخلها الجنة الموعودة التى وعدها الله على رسله..

﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ** ﴾.. وهذا محور الدرس..

نعود مرة أخرى سريعة فنقول إن هؤلاء قوم من أولى الألباب، وهم ﴿ **يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ** ﴾، وهم ﴿ **يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾، وهم يتضرعون إلى الله ضراعة حارة صادقة.. ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ** ﴾. فلأى من هذه الأربع استجاب الله سبحانه وتعالى: هل للتفكر؟ هل للتدبر؟ هل للذكر؟ هل للضراعة؟ فلننظر فى الآية: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ** ﴾.

هنا الدرس التربوى الذى اخترت هذه الآيات من أجل أن نركز عليه.. استجاب الله للذكر والفكر والتدبر والضراعة.. ولكن هل استجاب لها وهى ذكر

مجرد، وهى فكر مجرد، وهى تدبر مجرد، وهى ضراعة مجردة؟ أم استجاب حين تحول هذا كله إلى عمل: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى** ﴾؟

لم يقل سبحانه إنى استجبت لكم حين بدأتم تفكرون بعقولكم.. لم يقل سبحانه إنى استجبت لكم حين ذكرتمونى بألسنتكم.. لم يقل سبحانه إنى استجبت لكم لمجرد مدكم أيديكم بالضراعة إلىّ.. إنما قال سبحانه: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾.

ولنا وقفة مع قوله تعالى: ﴿ **مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى** ﴾ نعود إليها بعد حين.. لكن نريد أن نبين كيف أن الله سبحانه وتعالى استجاب للعمل.. ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾.

نصت الآية نصا على الأعمال لكى لا يتصور أحد أن الضراعة وحدها عمل. وأن الفكر وحده عمل، وأن الذكر باللسان وحده عمل يرضى الله سبحانه وتعالى فيقول للعبد: كفاك ما قدمت وقد استجبت لك! إنما نصت الآية على أعمال مشهودة محسّة مرئية.. أعمال من التى تغير الواقع الذى يعيشه الناس، لتبنى الواقع الأفضل الذى أخرجت هذه الأمة من أجله، وذكر هذه الأعمال بالذات فى الآية لا على أنها هى الأعمال الوحيدة التى يطلبها الله سبحانه وتعالى، أو التى يرضى على عباده حين يقومون بها. إنما هذه الأعمال مناسبة لسورة آل عمران، المشغولة كلها من أولها إلى آخرها بمعركة «لا إله إلا الله»، فكان مما يناسب السياق أن يذكر من الأعمال ما هو لصيق بمعركة «لا إله إلا الله»: ﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾.

لقد طلبوا التكفير عن سيئاتهم، وطلبوا أن يدخلوا الجنة.. فاستجاب لهم ربهم أن كفّر عنهم سيئاتهم ووعدهم بدخول الجنة.. على أى شىء؟ على التفكر والتدبر والضراعة والذكر الذى تحول كله إلى عمل مشهود فى واقع الأرض.

هل معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يستجيب لمن لا يعمل؟

هذا هو المستفاد من آيات القرآن كلها، ومن أحاديث الرسول ﷺ كلها.. إنه لا بد من عمل. ومع أن هذه بديهية، فإن هناك فى الأجيال المتأخرة من يتشكك فى ذلك، ويقول: يكفى ما فى القلب! «يكفى ما فى القلب» هذه من عدوى الإرجاء.. فالمرجئة هم الذين قالوا: الإيمان هو التصديق، وإن تبحبحوا قليلا قالوا: الإيمان هو التصديق والإقرار.. أى إقرار اللسان.. وليس العمل داخلا فى مسمى الإيمان..

هذا الانحراف عن خط الإسلام الأصيل سرى مع الأسف فى جسم الأمة وروحها وفكرها حتى صار الناس الآن إذا قيل لهم لا بد لكم من عمل ليتقبلكم الله يقولون: يكفينا أننا مصدقون.. مؤمنون.. وتكفينا شهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» نطقناها بألسنتنا فلم يعد لك أن تكلفنا شيئا فوق ذلك!

هذه الفكرة المنحرفة التى نشأت عن الفكر الإرجائى - مع غيرها من الأمراض - هى التى تقعد بالأمة اليوم عن العمل. ويقولون: انصرنا يا رب! فك أزمتنا يا رب! نجنا من الأعداء يا رب! أنزل غضبك على الأعداء يا رب! وهم لا يعملون ما كلفهم الله به ليعطيهم النصر، ويعطيهم التمكين، وهو منحة من الله سبحانه وتعالى يمنحها لمن يستقيم على طريقه. قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥].

هذا هو الشرط: ﴿ **آمَنُوا** ﴾ ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾.. ﴿ **يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾.. وفى مقابل هذا الشرط تكفل الله بكرمه ورحمته بالاستخلاف والتمكين والتأمين.. وهو أقصى ما تصبو إليه نفوس البشر فى الأرض.. لكن هذا الشرط ليس مجرد كلمة تقال؛ ليس مجرد وجدان داخل القلب.. يقول الواحد منا: آمنت وصدقت.. ما دليلك؟ قد تظن بينك وبين نفسك أنك قد بلغت أعلى مراتب الإيمان.. وكلنا يتوهم فى نفسه ذلك.. لكن هناك اختباراً.

كل تلميذ يقول: حفظت الدرس، فإذا قيل له: تعال، أجب عن السؤال الآتى،

يتلعثم ولا يجد عنده إجابة. فإذا قيل له: أجب عن سؤال آخر غيره، لم يجب، لأنه لم يحضر نفسه للامتحان، إنما توهم أنه حافظ وأنه دارس.

المسلمون اليوم، الواقعون فى قبضة أعدائهم، يستغلونهم، يشردونهم، يقتلونهم، يخرجونهم من ديارهم وأموالهم، يعتدون على حرماتهم وأعراضهم.. لماذا يفعل بهم ذلك؟ لأنهم خرجوا عن الطريق الذى رسمه الله للنصر والتمكين.. لأنهم لم يعودوا يؤدون لله الشرط الذى اشترطه عليهم. لأنهم يقولون: يكفينا الإيمان القلبى، ويكفينا الإقرار اللسانى، وليس العمل داخلا فى مسمى الإيمان.

لا بد لنا من أن نعود إلى الأصول: إلى كتاب الله وسنة رسول ﷺ، لنفهم معنى لا إله إلا الله، وهى ركن الإسلام الأول، وبابه الأكبر.. فمن لم يدخل منه... هل يدخل فى رحمة الله؟ رحمة الله وسعت كل شىء، والله سبحانه وتعالى إن شاء يدخل جميع الناس الجنة.. ولكنه هو سبحانه وتعالى هو الذى بيّن أن الطريق إلى الجنة هو الإيمان والعمل الصالح. لا بد من عمل ليقبل الله الضراعة والتفكر والتدبر والذكر، ويكفر السيئات، ويعفو عن الذنوب، ويدخل من شاء الجنة.

هذا من جهة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفيهما القول الفصل. ولكن تعالوا مرة أخرى إلى واقع الأمر.. تصوروا جماعة من الناس يتفكرون ويتدبرون ويتضرعون وهم جالسون فى أماكنهم لا يحولون الضراعة والتفكر والتدبر إلى عمل مشهود.. هل يكفى أن يقوم الأمر على هذا النحو بالقلب وباللسان ليخرج الأعداء من الأرض الإسلامية التى استولوا عليها؟ هل يخرج اليهود من فلسطين إذا أقمنا حلقة ذكر نذكر فيها الله سبحانه وتعالى؟ هل يتم هذا فى عالم الواقع؟ هل يتم ما كلفت به هذه الأمة من الشهادة على كل البشرية؟: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

كيف تكون الشهادة يوم القيامة؟ كيف تشهد هذه الأمة على كل الأمم يوم القيامة؟ إنما تتم الشهادة بواقع مشهود.. يا رب! قد بلغنا رسالتك، وهديناهم السبيل، وأريناهم كيف يطبق هذا الدين فى واقع الأمر، فأبوا وأعرضوا.. فهم بين يديك إن شئت رحمتهم وإن شئت عذبتهم.. ولكن إذا ذهبت الأمة الإسلامية

للقاء الله بلا عمل، فهل تستطيع أن تشهد على الآخرين؟ وبأى شىء تشهد؟ أتقول: يا رب كلفتنا فلم نقم بالتكليف.. أمرتنا بالعمل فلم نعمل، واكتفينا بما فى قلوبنا وبما يجرى على ألسنتنا؟! هل تصلح هذه الشهادة يوم القيامة؟ وهل يصلح للشهادة فى يوم القيامة إلا من شهد فى الحياة الدنيا؟!

وكيف تكون الشهادة فى الحياة الدنيا؟ تكون بإعطاء المثل.. كما فعل الجيل الأول رضوان الله عليهم. ومن قبل أعطى رسول الله ﷺ النموذج والقدوة. سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. هكذا فى عبارة بليغة مختصرة: كان خلقه القرآن. أى أنه كان ﷺ ترجمانا حيا لكل ما جاء فى كتاب الله.. ولهذا بعث وأرسل.. ليبين للناس - من خلال تطبيقه العملى - كيف يتم تنفيذ ما أمر الله به.

يقول الله للناس: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٥٩]، فيبلغهم رسول الله ﷺ الأمر الربانى، ثم يريهم من خلال عمله، ومن خلال منهجه فى الحياة كلها، كيف تكون عبادة الله وحده بلا شريك، فيعطيهم التوجيه والأمر، وتكون حياته ﷺ هى وسيلة الإيضاح.. ومن أحواله ﷺ ومن أفعاله، ومما أمر به وما نهى عنه يتكون منهج العبادة فى عالم الواقع.. الذى تلقاه صحابة رسول الله ﷺ ووعوه وطبقوه.

ولقد أراد الله أن يجرى نصر هذا الدين على السُّنة الجارية، لكى لا يجىء جيل متأخر، فيتقاعس ويقول: إنما نصر رسول الله ﷺ بالخوارق.. واليوم لا توجد خوارق!

من أجل هذا أجرى الله أمر هذا الدين بسنته الجارية ليكون للأجيال كلها عبرة وعظة.. فلقد نشر الجيل الأول الإسلام فى أقل من خمسين عاما فامتد الإسلام من المحيط غربا إلى الهند شرقا.. وقد أنجز ذلك الجيل هذا العمل الضخم بتطبيق الإسلام فى عالم الواقع.. لقد قدموا المعانى والقيم والتعاليم الإسلامية فى صورة بشرية حية.. صاروا هم قرآنا يتحرك على الأرض.. وممثلين لسنة رسول الله ﷺ.. فانتشر الإسلام فى الأرض حبّا لهذا الدين من خلال النماذج التى أخرجها هذا الدين.. من خلال التربية على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والأمثلة التاريخية كثيرة، لا نحتاج إلى تعدادها . . ولكنا نذكر مثلا أو مثلين . .

فتح المسلمون مصر وأهلها أقباط يدينون بالنصرانية على المذهب الأرثوذكسى. وكان الرومان يحتلون مصر من قبل، وكانوا على المذهب الكاثوليكى، وكانوا يضطهدون المذاهب الأخرى اضطهادا عنيفا حتى إنه كانت توجد كنيسة تسمى كنيسة مار جرجس (موجودة حتى الآن فى جنوبى القاهرة) فيها طابق علنى تقام فيه العبادة على المذهب الكاثوليكى - مذهب الدولة الرسمى - وطابق آخر سرى فى أسفل لإقامة الشعائر على المذهب الأرثوذكسى فى خفية من عيون الرومان، الذين كانوا يجلدونهم بالسياط بسبب اختلاف المذهب.

هل كان للمصريين ملجأ يلجأون إليه من ظلم الدولة الرومانية؟ أين يذهبون؟ ولمن يلجأون؟ بل كانوا يضربون بالسياط وهم صامتون . .

ثم جاء الفتح الإسلامى . . وحدثت الواقعة التى تعرفونها جميعا من دروس التاريخ، حيث ضرب ابن عمرو بن العاص الشاب القبطى الذى تسابق معه فسبقه، فقال له ابن عمرو وهو يضربه: خذها وأنا ابن الأكرمين! أى إذا كنت أخذت الجائزة فلتأخذها ولكنى أنا الأعلى لأنى ابن الأكرمين! فيجىء والد ذلك الشاب القبطى فيرتحل من مصر إلى المدينة ليشكو لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ضربة العصا على ظهر ولده . . وهم الذين كانوا يضربون بالسياط فلا يجدون ملجأ يلجأون إليه . . ولكن ها هو ذا الرجل لا يطيق ضربة العصا على ظهر ولده. لماذا! لأن الإسلام أشعره بكرامته الإنسانية.

ولقد ارتحل هذه المسافة الطويلة إلى أمير المؤمنين رضى الله عنه لأنه وجد الملجأ الذى يلجأ إليه . . وأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه - نموذج العدل بعد رسول الله ﷺ وأبى بكر الصديق رضى الله عنه - يعطى العصا للقبطى ويقول له: اضرب ابن الأكرمين! ويقول قولته الخالدة التى صارت نبراسا للبشرية كلها: يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!

هذا هو النموذج الذى فتح قلوب المصريين فدخلوا فى دين الله أفواجا.

وإلى نموذج سريع آخر . .

حين فتح أبو عبيدة بلاد الشام وأخذ الجزية من أهل الكتاب تنفيذا لأمر الله

سبحانه وتعالى، سمع أن هرقل يجهز جيشا لغزو الشام ونزعها من يد المسلمين. وكان النصارى من أهل الشام قد اشترطوا على أبى عبيدة وهم يسلمونه الجزية أن يحميهم من الرومان، حيث كان الرومان يضطهدون أهل الشام أيضا بسبب الخلاف فى المذهب.. فلما سمع أبو عبيدة بتجهيز هرقل لغزو الشام قام بعمل لم يتكرر فى تاريخ البشرية كلها، إذ رد الجزية للناس. ولم يحدث فى التاريخ أن أموالا من بلاد مفتوحة دخلت جيب الدولة الغازية ثم تخرج مرة أخرى وتعاد إلى الناس! ثم قال أبو عبيدة لهم: لقد اشترطتم علينا أن نحميكم وقد سمعتم ما يجهز لنا، وإنا لا نقدر على ذلك - يعنى على حمايتهم - ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم. فاعتمد على الله واعتزم، وتوكل على الله حق التوكل، فانتصر المسلمون على جيش هرقل، فعاد النصارى يدفعون الجزية وهم مبهورون بهذا النموذج الذى لم يروا مثله من قبل.. وكان هذا هو الذى فتح قلوبهم للدين الجديد..

ليست معجزة إذًا هى التى فتحت هذه الأرض الواسعة لدين الله، إنما هو التطبيق العملى لهذا الدين. هو ترجمة الذكر والفكر والضراعة إلى واقع عملى ملموس فى واقع الأرض.. هذا هو الذى نشر هذا الدين فى تلك البقاع الشاسعة فى فترة خيالية من الزمن - أقل من نصف قرن - ولم تكن خارقة، إنما تجرى على السنّة الجارية. ومعنى أنها سنة جارية أن ذات النتائج يمكن أن تتحقق حين تتحقق نفس الأحوال فى الأمة على النحو الذى يبينه هذا الدرس التربوى.

* * *

قلنا إن لنا وقفة عند قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ...** ﴾.

إن كل كلمة فى كتاب الله تجىء لمعنى.. تجىء لتوجيه..

وقد كان يكفى فى حسنا نحن البشر أن يقال: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ...** ﴾.

ولكن هذه العبارة ﴿ **بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** ﴾ ذات دلالة خاصة. إنها إشارة تربوية مقصودة.

ومع أن المجال هو مجال المعركة، والأعمال المتصلة بالمعركة: ﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا**

﴿ وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا .. ﴾ فإن هنا لفتة إنسانية اجتماعية تؤكد للمسلمين أن الرجال والنساء بعضهم من بعض، وأن المرأة فى عرف الإسلام إنسانة، وأن وجودها فى هذه الأرض وجود إنسانى، وأنه إن كان الإسلام لم يسوّ بين المرأة والرجل فى مواضع معينة كالقوامة والشهادة والميراث، فإن هذه ليست تفرقة فى الإنسانية. إنما الواقع أن الجنسين معًا كيان من أصل واحد: ﴿ .. خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١].

هذا وقد كانت أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادى تفكر فى أمر المرأة: هل لها روح أم ليس لها روح؟! وإن كان لها روح فهل هى روح إنسانية أم روح حيوانية؟! وإن كان لها روح إنسانية فهل هى من مرتبة روح الرجل أم من مرتبة أدنى؟!.. بينما كان هذا الدين - قبل ذلك بعشرة قرون كاملة - قد قرر من فوق سبع سموات تلك الحقيقة الهائلة: ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾.

* * *

ننتقل بعد ذلك إلى الآيات التالية:

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨].

هل هناك جسر يربط بين الآيات السابقة وهذه الآيات؟!

قلنا إن هذه السورة - سورة آل عمران - مشغولة من أولها إلى آخرها بمعركة «لا إله إلا الله»، سواء المعركة الحربية مع اليهود والنصارى والمشركين، أو المعركة الكلامية معهم، أو المعركة مع الشيطان الذى يوسوس لهؤلاء وهؤلاء، وحتى المؤمنون يمكن أن يخلص الشيطان إليهم فى ساعة الغفلة، فتبين السورة وسيلة التخلص من وسوسته:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم

مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

المعركة إذن هى مع الأعداء، ومع الشيطان، ومع الأوضاع التى تعترض طريق المؤمنين. وهذا هو الجسر الذى يربط بين الآيات السابقة وهذه الآيات. .

يتعجل الناس النصر. . يقولون: متى نصر الله؟ لقد تحملنا. . أوذينا. . هاجرنا. . قاتلنا. . قوتلنا. . فمتى نصر الله؟!

هنا تجىء هذه اللفتة القرآنية تسكب الراحة فى قلوب المؤمنين: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ فإذا كان الذين كفروا اليوم عالين فى البلاد فلا يغرنك هذا. لا يغرنك عن حقيقة قدر الله، ولا عن الحق الذى خلقت به السموات والأرض، والذى ينصر الله به عباده المؤمنين فى الحياة الدنيا. .

إن هؤلاء الكفار يتمتعون، ولكنه متاع قليل. . وكل متاع الدنيا قليل. . ولو أنهم انغمسوا فيه منذ خلقوا إلى اللحظة التى يموتون فيها فهو متاع قليل!

﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال: يا بن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟! فيقول: لا والله يا رب! ويؤتى بأشد أهل الأرض بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة فيقال له: يا بن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟! فيقول: لا والله يا رب! ما مر بى من بؤس قط، ولا رأيت شدة قط!**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم.

من أجل هذا يوصف نعيم الدنيا وصفا حقيقيا صادقا بأنه قليل: ﴿ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ** ﴾ . . ثم . . ؟ ﴿ **ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ . .

فإذا تأخر النصر فلا تعجل لذلك . . إن مصير أعداء الله معروف، فلا تعجل ولا تأس إذا طال الأمد خطوات أكثر مما قدرت . . ولا تشك فى الحق الذى خلقت به السموات والأرض، والذى يؤدى فى النهاية إلى يوم يبعث فيه الناس فيحاسبون على ما اقترفوا فى حياتهم الدنيا . .

﴿ **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ** ﴾ .

وبهذا تستقر القلوب المؤمنة . . وتستسلم لقدر الله، اطمئنانا إلى أن كل خطوة يخطوها الإنسان فى الأرض فى سبيل الله، لها ثقلها فى ميزانه يوم القيامة .

* * *

بقيت آيتان فى السورة، آية منهما تخص أهل الكتاب، ولكى نعرف موقعها فى السورة لا بد لنا من أن نقرأ السورة كلها فنجد أن هناك حوارا مستمرا وجدلا بين القرآن وبين أهل الكتاب، ومعارك يدخل فيها اليهود والنصارى . . فهذه اللفتة الأخيرة: ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. أى إن من آمن من أهل الكتاب يومئذ واستقام مع المؤمنين له الأجر ﴿ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ وهم مع المحسنين . مع المسلمين فى جنات الخلد التى وعد الله بها . هذا لكى لا يظن ظان أن كونهم من أهل الكتاب يحجبهم عن نتائج الهدى حين يهتدون، ما داموا آمنوا بالله وما أنزل إلى المؤمنين وما أنزل من قبل، أى الكتب السابقة التى أنزلت إليهم وهى ذاتها تدعوهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ . فلو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل إقامة حقيقية لوجب عليهم أن يؤمنوا برسول الله ﷺ فهو مذكور عندهم: ﴿ **النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾

[الأعراف: ١٥٧]، فأهل الكتاب الذين آمنوا مستثنون من أهل الكتاب الذين كانوا يشنون الحرب على الإسلام، وموعودون بالأجر الحسن مع المؤمنين.

ثم تختتم السورة..

السورة المشغولة - كما قلت مرارا - بمعركة لا إله إلا الله وبمقتضيات المعركة.. تختتم بهذا التوجيه الرباني التربوي العظيم: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

إنها درجات: الصبر والمصابرة والثبات - المرابطة - وتقوى الله. هذه هي المقومات التي يعطي الله النصر بعدها. وحين يعطي الناس من أنفسهم الشرط الذي اشترطه الله يتكفل الله بإجابة ما يتمناه الناس وما يرجونه: التمكين والاستخلاف في الأرض، والبركات: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأعراف: ٩٦]، والطمأنينة. ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨].

كل هذا يمنحه الله سبحانه وتعالى حين يستجيب الناس للشرط. والشرط ملخص في آخر السورة: ﴿ **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾.. حين تصعدون تلك الدرج: الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله التي هي قمة كل شيء، تصلون إلى ما تصبون إليه: ينصركم الله ويمكن لكم ويستخلفكم في الأرض، ويؤمّن لكم حياتكم، ويملؤها بركة ويملؤها طمأنينة.

هذا هو الدرس الذي اخترناه وموعدنا بإذن الله في درس تال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيد المرسلين

* * *

الدرس الثانى

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٩].

* * *

كنا فى الدرس الماضى مع أولى الألباب ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ونحن فى هذا الدرس مرة أخرى مع أولى الألباب، ولكن بمجموعة أخرى من الأوصاف تبين لنا مزيدا من أحوال أولى الألباب.

كان وصف أولى الألباب فى الآيات السابقة من سورة آل عمران أنهم يذكرون الله، ويتفكرون ويتدبرون ويتضرعون. وختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ..** ﴾ وبيّنا فى الدرس الماضى أن استجابة الله سبحانه لم تكن على التفكر وهو مجرد تفكر، ولا على التدبر وهو مجرد تدبر، ولا على الضراعة وهى مجرد ضراعة. وإنما حين تحول ذلك كله إلى عمل.. فقال سبحانه:

﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ونحن فى هذا الدرس مع أوصاف جديدة لأولى الألباب، الذين يعلمون أن ما أنزل من عند الله على رسوله ﷺ هوَّ الحق.

يقول تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ** ﴾.. والعلم يفيد اليقين.

﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ** ﴾.

فهنا فريقان من الناس: فريق يوصف بأنه ﴿ **أُولُو الأَلْبَابِ** ﴾ وفريق آخر يوصف بأنه﴿ **أَعْمَىٰ** ﴾. والمقابلة واضحة. والعمى المقصود هو عمى البصيرة وانغلاقها عن رؤية الحق، ورؤية أن ما أنزل على الرسول ﷺ من ربه هو الحق. والآخرون المبصرون هم أولو الألباب. فبم يوصف أولو الألباب فى هذا الدرس؟

﴿ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ⁽١٩⁾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ** ﴾.

هذه صفتهم الأولى التى تميزهم عن الذين لا يبصرون. فما الميثاق؟ وما العهد الذى يوفى به أولو الألباب؟

قد يكون هو ميثاق الفطرة: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فهذا ميثاق مأخوذ على الفطرة أن ربهم الله. وهم بمقتضى ذلك لا بد لهم من أن يعبدوا الله وحده بلا شريك.

ولكن الله - من رحمته - لا يأخذ الناس بميثاق الفطرة وحده - وإن كان قد أشهدهم على أنفسهم - حتى يرسل إليهم رسولا فيجدد الميثاق، ويجعله ميثاقا مباشرا بينهم وبين الرسول المرسل إليهم ألا يعبدوا إلا الله وحده بلا شريك.

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة: ٧]. فهذا الميثاق مجدد لميثاق الفطرة، مؤكد له.

والسؤال: ما مقتضيات هذا الميثاق؟

هل هو كلمة تنطق باللسان، كما صارت لا إله إلا الله فى حس الأجيال المتأخرة؟!

وهل نطق الكلمة باللسان هو المطلوب من البشر لكى يقال إنهم وفوا بالميثاق؟ أم إن هناك أعمالا - بجانب النطق - مطلوبة للدلالة على الوفاء بمقتضيات الميثاق؟

فلنراجع الآيات..

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾.

ثم تجىء الآيات الأخرى تفصيلا لمقتضيات الميثاق:

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾.

هكذا بغير تحديد. وكلمة ﴿ مَا ﴾ حين تطلق على هذا النحو تشمل كل ﴿ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾.

فما الذى أمر الله به أن يوصل؟ وما صلة ذلك بالميثاق الذى هو عقد الإسلام وعقد الإيمان؟

لقد أمر الله أن يكون القلب البشرى متصلا بالله سبحانه على قاعدة العبودية لله وحده بلا شريك: على قاعدة لا إله إلا الله:

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وهذا أول ما ينبغى أن يوصل. فكيف يتم هذا الأمر؟ كيف يتم وصل القلب البشرى بالله؟

إن هناك خيوطا كثيرة تصل القلب البشرى بالله، ولكنا نبرز هنا خمسة منها لأهميتها الخاصة.

الأول : اعتقاد وحدانية الله سبحانه وتعالى، أى الاعتقاد الجازم بأن الله واحد لا شريك له فى ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

الثانى : توجيه العبادة إليه وحده بلا شريك. كل أنواع العبادة التى افترضها الله على عباده. الشعائر، والدعاء، والنذر، والقسم، والولاء، والحب، والخشية، والرجاء. كل ذلك داخل فى العبادة التى يجب أن يوجهها العبد لله خالصة دون شريك.

الثالث : التحاكم إلى شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع.

وفى كل ذلك أوامر صريحة فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ .

كما أن الله يبين لنا من جهة أخرى أعمال الشرك ـ المقابلة لأعمال الإيمان، الناقضة للإيمان ـ فيحكى عن المشركين قولهم :

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] .

وقولهم فى آية أخرى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٣٥] .

فذكر فى الآية الأولى أمر الاعتقاد، وذكر فى الثانية أمر العبادة وأمر التحليل

والتحريم من دون الله. وكلها على مستوى واحد. كلها شرك. وكلها يؤدى إلى خروج العبد من الصلة التى يريدها الله منه تجاهه سبحانه وتعالى.

هذه ثلاثة خيوط تصل القلب البشرى بالله، ونحن لم نستكمل الحديث بعد، ولكنا نريد أن نركز على هذه الثلاثة: الاعتقاد الجازم بوحدانية الله، وتوجيه العبادة إليه وحده دون شريك، والتحاكم إلى شريعته وحدها دون غيرها من الشرائع، لأنها أصول إذا نقضت أو نقض واحد منها نقضت معه لا إله إلا الله.

وإننا لنجد من هذه الأجيال المتأخرة من يسلم لك بأمر الوحدانية دون نقاش، ويسلم لك دون نقاش كذلك بضرورة توجيه العبادة لله وحده دون شريك، وأن هذا وذاك من مقتضيات لا إله إلا الله، ولكنه يقف عند قضية تحكيم الشريعة يجادل ويناقش، يقول: هل افترض الله علينا حقا أن نتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع؟ ولا يقبل منا أن نمزج بها شيئا من تجارب الأمم المتقدمة ومن عبقريات الفكر البشرى؟ ما الضرر؟ ما الذى يتعارض مع مقتضيات لا إله إلا الله فى هذا العمل؟ وما الذى يقطع الحبل الذى يصل القلب البشرى بالله إذا تحاكمنا إلى ما تفرزه عبقريات البشر؟ وهل ننسى أن الفقه الإسلامى جمد على حاله قرنين أو ثلاثة قرون بينما جدت فى حياة البشرية أمور كثيرة، ولم تعد الشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرنا تصلح لحكم الواقع المعاصر؟ ماذا لو عملنا «تحسينات»! لا نلغى شرع الله كله، وإنما نأخذ منه ما يناسب عصرنا، ثم نأخذ من الدستور الفرنسى شيئا، ومن الدستور الأمريكى شيئا ومن الدساتير الاشتراكية شيئا.. ونظل مسلمين!!

يقول تعالى: ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف: ٥٤] فيجعل «الأمر» مرتبطا «بالخلق»، ويجعل الخلق متقدما. فبما أنه سبحانه هو الخالق فهو صاحب الأمر. ولا يكون أحد صاحب أمر من دونه، لأنه لا أحد غيره يخلق: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١٧].

وهذا البشر الذى يدعى لنفسه سلطة الأمر.. إلى أى شىء يستند؟ ما الذى يملك من هذا الكون كله؟ بل ما الذى يملك من أمر نفسه حتى يدعى لنفسه حق الأمر؟ هل يملك نَفَسَه الذى يتنفسه؟ هل يملك شربة ماء تحفظ عليه حياته؟ هل يملك لقمة خبز؟

هل يملك سمعه؟ هل يملك بصره؟ هل يملك عقله الذى يفكر به ويجعل نفسه به ندا لله سبحانه وتعالى فيقول لله: «أنت أمرت بكذا ولكن لى وجهة نظر مخالفة»؟!

أم إن هذه كلها: السمع والبصر، والماء والهواء، والرزق كله والحياة ذاتها هى من نعم الله على هذا الإنسان، لا يملك أن ينشئ شيئا منها من عند نفسه؟ فمن أين لهذا المخلوق إذن أن يتبجح فيقول: إن لى نصيبا من الأمر؟!

كلا! إن الأمر كله لله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] ومن حق الألوهية على العبودية أن يأتمر العباد بما يأمرهم به الخالق الرازق المهيمن، وليس من حق العباد أن يجعلوا أنفسهم أندادا لله وهم يُخْلَقُون ولا يَخْلُقون.

ومن جانب آخر فإن الذى يشرع لا بد له من أن يكون محيطا بكل شىء، وبدقائق حياة الإنسان الذى يشرع له، لكى يضع له تشريعا يناسب أحواله، ويحقق مصالحه، ويصلح حياته، ولا يفسدها بتشريعه.

وأذكر فى هذا المجال شهادة رجل غير مسلم هو الطبيب العالم الفرنسى «**ألكسيس كاريل**» فى كتابه: «الإنسان ذلك المجهول» حيث يقول: «إننا لا نفهم الإنسان ككل. إنما نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة! وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التى يلقيها أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى على أنفسهم تظل بلا جواب لأن هناك مناطق غير محددة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة..»(١).

ويمضى «**أليكسيس كاريل**» فيقول فى كتابه: «إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب، لأنها لا تلائمنا. لقد أنشئت دون أى معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، فإنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا»(٢).

فإذا كانت هذه شهادة «العلم» على لسان رجل غير مسلم، يقول إن الإنسان لا

---

(١) تعريب شفيق أسعد فريد، نشر مكتبة المعارف بيروت ص ١٣.
(٢) ص ٣٨ من الترجمة العربية.

يصلح أن يشرع لنفسه ولا أن يضع لنفسه منهج حياته لأنه يجهل حقيقة نفسه، فأولى بالمسلم الذى يستمد هدايته من كتاب الله أن يعرف هذه الحقيقة، والله يقول:

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ويقول: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

فحين يشرع الله للإنسان فهو يشرع له على قدر كيانه بالضبط، فينزل من الشريعة ما يتناسب تماما مع النفس التى خلقها سبحانه، ويعلم مساربها ومداخلها ومخارجها، وما يصلحها وما يصلح لها:

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].

فأنّى للإنسان أن يقول: إن عندى من المؤهلات ما يؤهلنى أن أشرع مع الله، أو من دون الله؟!

بل تقول الجاهلية المعاصرة ما هو أنكى وأشد فجورا من ذلك. تقول على لسان جوليان هكسلى فى كتاب له يسمى «الإنسان فى العالم الحديث»: «لقد خضع الإنسان لله من قبل بسبب عجزه وجهله. أما الآن - وقد تعلم وسيطر على البيئة - فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله!!» نعوذ بالله من الكفر.

وتسرى هذه العدوى إلى عقول بعض «المسلمين» وقلوبهم فيقولون: ما الضرر فى أن نشرع لأنفسنا؟ إننا نؤمن بالله، ونتوجه إليه بالشعائر. أما فى قضية التشريع فاسمحوا لنا أن نأخذ من هنا ومن هنا، ولن نترك شريعة الله كلية، ففيها أشياء نافعة، ولكن نضيف إليها ونكمل عليها!! ويصبح هذا الأمر للأسف الشديد موضع جدل ونقاش بين من يسمون أنفسهم «كتابا» و«مفكرين»!

لقد حدث فى حياة الأمة انحرافان تاريخيان فى الماضى. أحدهما حين نشأت

الفرق الكلامية وحورت فى العقيدة وحرّفت، كما فعلت الفرق المؤولة والمشبهة والمعطلة وغيرها . . واختلف العلماء بشأنها وشأن المبتدعين فيها : هل يخرجهم ابتداعهم من الملة أم لا يخرجهم منها؟

وأما الانحراف الآخر فحين حكم التتار بغير ما أنزل الله، وكان لهم كتاب يسمى «الياسق» يحوى أحكاما من التوارة وأحكاما من الإنجيل وأحكاما من القرآن، بالإضافة إلى بعض أعرافهم الجاهلية، فلم يختلف فى أمرهم عالم واحد!

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة : ٥٠] :

«ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والمصطلحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذى وضع لهم «الياسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى : من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكّم سواه فى قليل ولا كثير»[١] .

لماذا يختلف مسلمو اليوم فى هذه القضية التى لم يختلف فيها أحد من قبل؟!

ألا إنها الغربة الثانية التى أخبر عنها رسول الله ﷺ حين قال : «**بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ**..»[٢] . فتجد أشياء كثيرة من البدهيات غريبة على حس الناس، إذا حدّثوا بها يقولون : من أين جئتم بهذا؟!

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٨ .

(٢) رواه مسلم .

من أين؟! لقد جئنا بها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن سيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم.

* * *

نعود إلى مقتضيات الميثاق الذى جاء ذكره فى وصف أولى الألباب: ﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ**﴾ وهى الخيوط التى تصل القلب البشرى بالله.

الخيط الأول الذى تحدثنا عنه هو الاعتقاد بوحدانية الله. **والثانى** هو توجيه العبادة لله وحده دون شريك. **والثالث** هو التحاكم إلى شريعة الله وحدها دون سواها، ونبذ كل شريعة غير شريعة الله.

الخيط الرابع هو أداء التكاليف التى كلّف الله بها عباده فى كتابه وفى سنة رسوله ﷺ. تدخل فيها أركان الإسلام، وكذلك الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الدين كله لله، وتصبح شريعة الله هى الحاكمة فى كل الأرض.

﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ [الأنفال: ٣٩].

هل معنى ذلك أن نكره الناس على الإسلام؟

كلا! إنما هذه من المزاعم التى يروجها المستشرقون. يقولون إن الإسلام انتشر بالسيف، وإنه يجبر الناس على اعتناق العقيدة!

كيف يكون ذلك والله يقول: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لم يجاهد المسلمون ليكرهوا الناس على الدخول فى الإسلام: ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: ٩٩].

إنما شرع الجهاد من أجل إزالة العقبات التي تقف فى طريق القلب البشرى وتمنعه من الاستماع إلى كلمة الحق، ممثلة تلك العقبات فى حكومات ونظم جاهلية، وجيوش تحمى تلك الحكومات والنظم. والمسلمون مكلفون بإزالة هذه النظم الجاهلية، فإذا أزيلت فالناس أحرار بعد ذلك يختارون لأنفسهم ما شاءوا، يدخلون فى الإسلام إن أحبوا، أو يبقون على دينهم. وقد دخل المسلمون الهند وهى وثنية، وظلوا فيها ثمانية قرون فلم يفرضوا الإسلام على أحد، والدليل على ذلك أن الهنود مازالوا على دينهم

حتى الآن. وكذلك الأمر بالنسبة للنصارى الذين يعيشون داخل العالم الإسلامى، ولو كان هناك إكراه على اعتناق الإسلام ما بقى أحد منهم حتى اليوم.

هذه التكاليف التى ذكرناها آنفا، ما الفرق بينها وبين الأمور الثلاثة الأولى: اعتقاد الوحدانية، والتوجه بالشعائر لله وحده، والتحاكم إلى شريعة الله؟ الفرق أن هذه الثلاثة الأخيرة إن نقضت تنقض أصل الإيمان. تنقض أصل لا إله إلا الله. وليس فيها زيادة ولا نقص؛ فهى إما أن تتحقق فيتحقق معها الإيمان، وإما أن تنقض فينقض الإيمان. أما التكاليف الأخرى فإن عدم العمل بها لا ينقض أصل الإيمان. إنما يزيد الإيمان بمقدار ما يأتى الإنسان من هذه التكاليف وينقص بمقدار ما يعصى الله فيها.

أما **الخيط الخامس** من الخيوط التى تصل القلب البشرى بالله، والداخلة فى قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ**﴾ فهو أخلاقيات لا إله إلا الله. وهى من التكاليف. ولكنا نفردها لأهميتها الخاصة.

وهذه تحتاج منا إلى كلمة، لأن الأجيال المتأخرة تكاد تفصل بين لا إله إلا الله وبين الأخلاق. وقد تكون الطريقة التى ندرس بها أمور العقيدة فى معاهدنا مسئولة إلى حد ما عما وقع فى حس الناس من انفصام بين لا إله إلا الله ومقتضياتها - ومن بينها الأخلاق. ومازلت أذكر - مع الأسف - رسالة جامعية كانت تناقش فى إحدى الجامعات، موضوعها «الأخلاق فى الإسلام». وركز الطالب على أن الأخلاق هى من مقتضيات لا إله إلا الله، وأن الإيمان لا يكون تاما إلا بالتخلق بأخلاق الإسلام، فزجره الأستاذ المناقش وقال له: من أين جئت بهذا الكلام؟! نحن تعلمنا أن العقيدة إلهيات ونبوات وسمعيات، ولا شىء غير ذلك! أما الأخلاق فهى شىء قائم بذاته!

هذا الفصل بين لا إله إلا الله ومقتضياتها هو الذى ترسب فى قلوب المتأخرين من المسلمين فظنوا أن لا إله إلا الله تقوم بذاتها، وأنه لا يوجد لها مقتضيات، وأنها إن قطعت عن كل مقتضياتها تظل كاملة لا ينقصها شىء.

وليس هذا الانحراف جديدا فى حياة المسلمين، إنما يرجع إلى أمد سابق، حين انحسر مفهوم العبادة فى حس المسلمين حتى اقتصر على الشعائر التعبدية، فصار

من أدى الشعائر التعبدية يحسب فى نفسه أنه أدّى العبادة، فلا عليه أن يخرج من المسجد فيكذب أو يرابى أو يغش أو يخلف الوعد أو ينقض المواثيق.

هل كانت الأجيال الأولى تعتقد أن العبادة محصورة فى الشعائر التعبدية؟

فى الدرس الماضى مررنا بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ** ﴾. وقلت إنه لم يعهد عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يذكرون الله بطقطقة المسابح. كانوا يذكرون الله باللسان والقلب، ولكنهم لا يكتفون بذكر اللسان والقلب. إنما يذكرون الله بطريقة أخرى هى التى أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ** ﴾.

كانوا يذكرون الله فيسألون أنفسهم هل نحن فى الموضع الذى يرضى الله عنه؟ أم نحن فى موضع يسخطه سبحانه؟ فإن وجدوا أنفسهم فى موضع الرضا حمدوا الله، وإن وجدوا غير ذلك ذكروا فعادوا. يقول تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

يسميهم الله ﴿ **الْعَامِلِينَ** ﴾. لقد سقطوا فى حفرة فلم يجلسوا فى الحفرة ويظلوا فيها. بل بمجرد ما تذكروا قاموا فنفضوا عن أنفسهم غبار الحفرة ثم استقاموا على الطريق.

وكانوا يذكرون الله فيسألون أنفسهم: ماذا يريد الله منا فى هذه اللحظة؟ فإن كان الأمر الربانى لهم: قاتلوا في سبيل الله، سارعوا إلى الجهاد. وإن كان التوجيه الربانى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء: ١٩]، يصبح ذكر الله مؤديا إلى معاشرة الأهل بالمعروف.. وهكذا كان ذكرهم هو ذكر اللسان والقلب، المؤدى إلى العمل بمقتضى الإيمان.

ونترك مؤقتا ما وقع من انحراف فى الأجيال المتأخرة، ونعود إلى الصورة الصافية فى كتاب الله: ﴿ **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ** ﴾.

لقد تحدثنا عن وصلة واحدة ذات خمس شعب، كلها من مقتضيات لا إله إلا الله، وهى أول ما أمر الله به أن يوصل. لكن فيما أمر الله به أن يوصل سعة وتفصيلا يشمل كل أمور المسلم. يشمل صلته بربه التى تحدثنا عنها آنفا، ويشمل صلته بالوالدين وأولى القربى، وصلة المسلم بأخيه المسلم، وبنى الإنسان كلهم، على نهج معين حدده الله فى كتابه وفى سنة رسوله ﷺ.

وأحب أن أنبه إلى نقطة معينة بالنسبة للأخلاق وصلتها بالميثاق.

إن الأخلاق فى الإسلام تشكل ميثاقا بين العبد والرب. إنها ليست مجرد أمور تواضع البشر عليها فيما بينهم، ولا هى مجرد صلات أقامها البشر بين بعضهم وبعض. فإنها حينئذ تكون أخلاقا نفعية مصلحية. وهذه هى الأخلاق التى تخدعنا بها الجاهلية المعاصرة. فحين يذهب أحدنا إلى أوروبا أو أمريكا يجد أخلاقا لطيفة جدا فيحسب لأول وهلة أنها هى أخلاق الإسلام. ولقد خدع بها الشيخ محمد عبده من قبل فقال حين ذهب إلى أوروبا: وجدت هناك إسلاما بلا مسلمين وعندنا مسلمون بلا إسلام!

فأما الشق الثانى فصحيح! يعنى عندنا من يحملون أسماء مسلمة، ولكنهم لا يمارسون الإسلام فى عالم الواقع. أما الشق الأول فلنا عنده وقفة.

إن ظاهر أخلاق الغرب جميل جدا. وأضرب لكم بعض الأمثلة:

على الرغم من كل الفساد الخلقى الموجود فى الجاهلية المعاصرة يكون الموظف والموظفة عشيقين فى الظلام أو فى النور، لأنه لا فرق عندهم بين النور والظلام، ولكنهما فى ساعات العمل لا يلتفت أحدهما للآخر ولا يصرفان شيئا من وقت العمل فى التحدث فى أمورهما الخاصة.

والأمانة التى نفتقدها فى عالمنا الإسلامى المعاصر موجودة عندهم. لا يغشك التاجر، ولا يخدعك فى نوع البضاعة ولا فى السعر. ولذلك يوفرون وقت المساومة.

وكذلك الصدق.. والدقة فى المواعيد.. أخلاقيات تبدو فى ظاهرها أنها أخلاقيات الإسلام.

أذكر ذات مرة أن تاجرا مصريا استورد بضاعة من بريطانيا، وحين تسلمها وجد فيها طردين مخالفين لمواصفات الصفقة التى عقدها.. فرأى التاجر أن يغض الطرف عنهما مادامت بقية البضاعة مستوفية للمواصفات المطلوبة، ولكنه فوجئ ببرقية من التاجر المصدّر فى بريطانيا يعتذر فيها عن الخطإ غير المقصود، ويبدى أسفه الشديد لما حدث، ويخبره بأن طردين بديلين فى طريقهما إليه!

ماذا نقول عن مثل هذه الأخلاق؟ مثالية!

ولكن تعالوا معى نتفحصها جيدا..

إنها فى حقيقتها أخلاقيات التاجر اليهودى الذكى الذى يعمل على استدامة علاقته بالزبون بالتودد إليه، والتلطف معه، والصدق فى معاملته، حتى يأتى إليه مرة ومرة، فيزداد ربحه فى كل مرة! وقارن هذا بما يحدث من بعض التجار فى موسم الحج، حيث يكون همهم استفراغ ما فى جيب الزبون، ولا يهم إن لم يعد إليهم بعد ذلك أبدا!!

كلا! إن الأخلاق الأوروبية - مع جمالها الظاهرى - أخلاق نفعية، تبحث عن المنفعة وحدها، فإن وُجدَتْ وسيلة «لا أخلاقية» تحقق «المصلحة» فإن الغرب لا يتوانى فى استخدامها وَلا يتحرج ولا يتأثم. وانظروا إلى الاستعمار، ووسائله الخسيسة فى استعباد الشعوب ونهب خيراتها. وانظروا إلى أوروبا وهى تصدر السموم إلى العالم الثالث: الطعام الفاسد الملوث بالإشعاع بعد حادثة تشرنوبل، والدواء المنتهى أجله، والدواء الذى ما زال فى دور التجربة. وانظروا إلى أخلاقيات الرجل الأمريكى الأبيض مع الزنوج الذين يشاركونه فى المواطنة، ويشاركونه فى العقيدة أحيانا.

كلا! إنها أخلاق نفعية بحتة، لأنها - فى حسهم - ليست ميثاقا بينهم وبين الله. إنما هى معاملات أرضية بحتة، هدفها تحقيق المصالح المؤقتة.

قارن هذا بما كان عند المسلمين يوم أن كانوا مسلمين حقا. يوم أن كانوا يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. يوم أن كانت أخلاقهم ميثاقا بينهم وبين الله، لا مصلحة بينهم وبين غيرهم من البشر. لقد انتشر الإسلام فى كثير من بقاع الأرض على يد التجار المسلمين. وهذه إندونيسيا بكاملها كان العنصر الفعال فى دخول

الإسلام إليها وانتشاره فيها هو التجار الحضارمة الذين ذهبوا هناك للتجارة، ولكنهم ذهبوا بسمت الإسلام ونظافة الإسلام وطهارة الإسلام. فأحب الناس هذا الدين الذى يربى هذه الأخلاقيات الجميلة فى أتباعه، فدخلوا فى دين الله أفواجا.

ويستلفت نظرنا - فى هذا المجال - هذه الآية من سورة لقمان [آية: ١٤]:

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾.

فالتوصية هى للوالدين، وللأم خاصة، التى حملته وهنا على وهن، والوصية هى إحسان معاملتهما والبر بهما وطاعتهما ورعايتهما، وكلها علاقات بين الإنسان وبين والديه، ولكن كيف تتم هذه العلاقات؟ ومن أى قناة تمر؟! إنها تتم عن طريق الصلة بالله: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾. فهى ليست صلة مباشرة بين البشر بعضهم وبعض، إنما هى فى الأساس صلة مع الله تنبثق منها وتندرج تحتها علاقات البشر بعضهم ببعض.

وتستمر الآيات تعرض بعض ما أمر الله به أن يوصل، للتوضيح والتوكيد والترسيخ:

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ... ﴾.

كل هذا داخل فى الميثاق مع الله، بينما يحسب أناس ممن يحملون أسماء إسلامية أنه لا علاقة بين هذه الأشياء وبين لا إله إلا الله! والآيات صريحة فى أن هذه أخلاقيات أولى الألباب، الذين يعلمون أن ما أنزل إلى رسول الله ﷺ هو الحق، أى الذين يؤمنون بأنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

وأما جزاء أولى الألباب هؤلاء، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، فتبينه الآيات:

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ .

والوجه الآخر من الصورة يصور حال الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه :
﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ .

لقد بينت الآيات الأولى طبيعة الميثاق وارتباطاته ومقتضياته . وهذه الآية تبين حال الذين ينقضون هذا الميثاق ، فيقطعون الخيوط التى تصل القلب البشرى بالله : توحيد الألوهية ، والتوجه بالعبادة لله وحده ، والتحاكم إلى شريعته ، وخشية الله ، والخوف من سوء الحساب ، والصبر ابتغاء وجه الله ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق فى السر والعلانية ، ودرء السيئة بالحسنة . . . فمن أجل قطعهم لهذه الصلات كلها مع الله ، ونقضهم الميثاق سواء كان ميثاق الفطرة أو الميثاق الذى جاء به الرسول ﷺ متمثلا فى لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فإنهم يفسدون فى الأرض . ولا بد من أن ينشأ الفساد نتيجة ذلك . فإنه لا يمكن أن ينقض الميثاق ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل ثم تبقى الأرض صالحة . بل لا بد من أن يظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس .

ويجىء الجزاء على ما فعلوا من سوء :

﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ .

وتستمر الآيات فتذكر حقيقة فى صميم الموضوع وإن لم تظهر صلتها المباشرة به لأول وهلة :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ .

هذه حقيقة هائلة يستيقن منها القلب المؤمن الذى يعلم أن ما أنزل إلى الرسول ﷺ هو الحق . أما المطموسة بصائرهم فيقول الله عنهم : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

ما علاقة هذا الأمر بذاك؟ ما علاقة كون الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، بكونهم يفرحون بالحياة الدنيا؟ وما علاقة الأمرين معا بقضية الميثاق الذى يوفى به أولو الألباب وينقضه من هو أعمى؟!

العلاقة أن الذين ينقضون الميثاق قد نقضوه طمعا فى الحياة الدنيا! ظنا منهم أن الوفاء بالميثاق ينقص متاع الحياة الدنيا أو يعكّر صفوه!! وأنهم حين ينقضون الميثاق يزيد نصيبهم من المتاع! فيقول الله لهم إن الله هو الذى ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾. وليس الإيمان فى ذاته وليس الكفر فى ذاته هو الذى يسبب بسطة الرزق أو قلته. إنما هو تقدير الله، الذى يقدر البسط والقبض لحكمة يعلمها ويريدها سبحانه. ثم إن متاع الحياة الدنيا الذى يكفرون من أجله، ظنا منهم أن كفرهم يتيح لهم بسطة فى الرزق لا يتيحها الإيمان، هذا المتاع زائف زائل، لا يفضى فى الآخرة إلى شىء!

وعلى ذلك يكون أولئك المطموسو البصيرة قد نقضوا ميثاقهم مع الله جهلا منهم بحقيقة التدبير الربانى، وفرحا بشىء زائل لا يستحق التعلق به، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، حيث يخلدون فى النار!

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾..

كان هذا فى أيام البعثة والجدل بين المشركين وبين رسول الله ﷺ. أى: لا نصدق إلا إذا رأينا آية ملموسة محسوسة.

ولقد نظن أحيانا أن هذا تاريخ مضى، وأن الجاهلية التى كانت تشترط هذا الشرط لكى تؤمن قد مضت إلى غير رجعة. واليوم نجد جاهلية علمية تجريبية فيها «دكاترة» وفيها.. وفيها.. يقولون لا نؤمن حتى نرى الله جهرة. لا نؤمن - أستغفر الله - حتى يدخل الله المعمل التجريبى، فإذا كان لا يدخل فلن نؤمن به! نفس الانحراف! فالنفس البشرية هى هى. فى حالة هداها. وفى حالة ضلالها: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]. **لا الصواريخ.. ولا «تشالنجر» وهو الصاروخ الذى أطلق أخيرا ومعناه «المتحدى» - يتحدون من؟ لست أدرى! وقد احترق بعد دقيقة من انطلاقه كما تعلمون. لا الصواريخ ولا الوصول إلى القمر ولا الوصول إلى المريخ.. لا شىء من ذلك يغير الحقيقة. المطموس بصره هو هو لا يزيده تقدمه العلمى إلا انطماس بصيرة، بينما نجد على الجانب الآخر:** ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]. العلماء بحق هم الذين يدركون عظمة الخالق

سبحانه وتعالى فيزدادون إخباتًا له وخشوعا، وهذا هو العلم الحقيقى الذى يقرّب من الله.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾.

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾: يعنى هذا هو الطريق إلى طمأنينة القلب، ولا طريق غيره.

والجاهلية المعاصرة - بسنة من سنن الله - مفتوح عليها أبواب كل شىء. وهذه سنة ربانية: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقد كان أناس فى مطلع هذا القرن قد ظنوا أن سلطان الله قد انتهى، وأن الكفار الذين يجحدون الله أصبحوا هم أصحاب السلطان!

نعم إنهم ممكنون فى الأرض ولكن بسنة من سنن الله.. وإلى حين:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وهو غير تمكين المرضى عنهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

كلاَ التمكينين يتم بسنة من سنن الله:

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولكن يمكّن الله للكفار ليزدادوا إثما، وليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة:

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٨].

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥].

ويفتح عليهم أبواب كل شيء إلا بابا واحدا : باب البركة.. باب الطمأنينة.. فهذا لا يفتحه إلا للمؤمنين :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦].

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾.

وانظروا إلى تمكين الجاهلية فى أوروبا وأمريكا. وانظروا إلى القلق وانعدام البركة والتمزق الذى يعانيه الناس هناك، فيؤدى بهم إلى الانتحار والجنون والخمر والمخدرات والجريمة.

وفى الجانب الآخر : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾.

الدرس الثالث

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٤٢].

* * *

هذه الآيات مليئة بدروس تربوية متتابعة، حتى إننا نكاد نقول إن كل آية فيها درس، ولكن يجمعها فى النهاية درس واحد مشترك. وقد لا يتسع المجال للإفاضة فى كل درس مفرد منها، لكن يكفى أن ندرسها فى إطار الدرس الأكبر الذى يحتوى الدروس الأخرى كلها.

تبدأ هذه الدروس بتوجيه المؤمنين أن يبتعدوا عن الربا:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وقد أراد بعض الناس أن يحصروا الربا المحرم فى الأضعاف المضاعفة، فلا بأس - فى زعمهم - بالربا القليل الذى لا يصل إلى الأضعاف المضاعفة. وهذه سذاجة فى فهم النص بالنسبة لدين الله، وبالنسبة للاقتصاد أيضا. فليس هناك فى الاقتصاد ربا لا يؤدى فى النهاية إلى الأضعاف المضاعفة. والربا محرم أصلا، وليست الأضعاف المضاعفة وحدها المحرمة. والذى يكسب من الربا فى واقعنا المعاصر هو اليهودية العالمية. وأىّ ربا فى أى مكان فى الأرض يصل فى النهاية إلى أعداء الله. بل إنهم يأخذون حصيلتهم من الربا العالمى ويحاربون به المسلمين.

والنهى الربانى شامل للربا جميعا. والدليل قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. فلم يبح سبحانه وتعالى شيئا فوق رأس المال، سواء كان قليلا أو كثيرا. وفى سورة الروم يقول تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٩] وكلمة ﴿ مَا ﴾ تفيد العموم.. أى أىّ قدر من الربا قلّ أو كثر.

هذا هو الدرس الأول فى الآية الأولى، وهو درس له خطورته منذ أن نزل هذا الدين إلى أن تقوم الساعة. وهو فى عصرنا هذا أوضح وأظهر، وأحوج إلى اتباع أمر الله فيه، وخاصة وقد مكن اليوم لليهود استثناء من القاعدة التى قدرها الله لهم - والاستثناء يتم كذلك بقدر من الله - فالأصل بالنسبة لليهود هو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾ [آل عمران: ١١٢]. ثم استثنى تعالى شأنه من هذه الحالة الدائمة فقال: ﴿ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٢]. و﴿ إِلاَّ ﴾ كما تعلمون حرف استثناء، فهى تدل على حالة استثنائية غير الحالة الدائمة المكتوبة على اليهود، وإن كانت هى ذاتها تتم بقدر من الله. واليهود اليوم فى قمة الفترة الاستثنائية التى تشير إليها الآية. ﴿ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى بقدر من الله ومشيئة. فإنه لا يكون شىء فى هذا الكون كله إلا ما قدره الله سبحانه وتعالى. وهذا هو الحبل من الله...

﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ .. ﴾ .

لقد اقتضت السنة الربانية أن يجرى قدر الله من خلال أعمال الناس . وحين استثنى اليهود هذا الاستثناء من القاعدة الدائمة المفروضة عليهم من عند الله ـ وهى المذلة الدائمة ـ جعل الله ذلك بقدر ومشيئة من عنده ، وبحبل من الناس . أى أن الناس اليوم يمدون اليهود . وأشد ما يمدونهم به هو الربا الذى يتعاملون به ، إذ الربا اليوم يكاد يكون حكرا على اليهود ، حيث تصل حصيلة الربا العالمى إلى شعب الشيطان ، ويستخدمونها فى حرب المسلمين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

ثم يأتى وراء ذلك النذير :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

ذلك أن البشر ـ حين يغرقون فى أمور الحياة الدنيا حتى تنسيهم الآخرة ـ يحتاجون إلى تنبيه شديد . فحين ينغمس الناس فى الربا يهددهم سبحانه وتعالى بعذاب النار . ويذكرهم بعد ذلك بالطاعة التى تستجلب رحمة الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

إذ السبيل إلى تنزل رحمة الله على البشر أن يطيعوه ويتقوا سخطه ، فإن أطاعوه كانوا أهلا لبركاته :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

وهنا نقف لنفرق بين نوعين من التمكين فى الأرض . فإن الله تعالى يعطى الدنيا لمن أحب ومن لم يحب :

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] .

ولكن شتان بين التمكينين . فأما الذين كفروا فيمكن لهم تمكينا واسعا لفترة من الوقت :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

ولا يسأل سبحانه وتعالى: كيف؟ ولا لماذا يمكّن للكفار وهم كافرون، ويعطيهم هذا العطاء الواسع الذى تعبر عنه الآية: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ..﴾ القوة العسكرية، والمادية، والعلمية، والاقتصادية، وكل أنواع القوة. لا يسأل سبحانه عما يفعل. ولكنا حين نتدبر قدره سبحانه، ونجمع الآيات والأدلة من كتاب الله نجده سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. ويقول تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. فهو يملى لهم فى الأرض لحكمة يريدها سبحانه، ولكن يعاقبهم العقاب الأكبر يوم العقاب الأكبر: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ولكن على كل ما يفتح الله لهم من أبواب، فإن هناك بابا معينا لا يفتحه لهم بل يختص به المؤمنين كما أشرنا فى الدرس السابق: ذلك باب البركة ـ باب الرحمة ـ باب الطمأنينة. وهنا يفترق تمكين المؤمنين وتمكين الكفار.

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وفى هذا تحضيض وحث للمؤمنين أن يسارعوا إلى ما يرضى الله سبحانه وتعالى، وما يجعل الله يغفر للمؤمنين. وكل بنى آدم ـ بلا استثناء ـ محتاجون إلى مغفرة الله ورحمته، لأن كل بنى آدم خطاء. والدعوة هنا هى إلى المسارعة فى الطاعات وفى عمل الخير الذى يرضى الله، ويوصف المتقون الذين أعدت لهم الجنة والمغفرة بأنهم ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

ونلاحظ أن الدعوة إلى الإنفاق تأتى بعد النهى عن أكل الربا. وهنا لفتة تستحق الوقوف عندها. فطريق الطامعين فى الاستزادة من متاع الحياة الدنيا بغير حق هو استخدام المال فى الربا ليزيد، أما المتقون فإنهم يستزيدون من طريق آخر. من طريق

الإنفاق فى سبيل الله، فيزيد المال.. لا يزيد عدداً، إنما يزيد غنىً نفسيا، ويزيد بمغفرة الله ورحمته، وهذا هو المعنى اللائق بالإنسان. إن المال أَدَاة وليس غاية. فلو أن الإنسان جمع حوله ملء هذا المكان ذهبا.. فهل متعته هى مجرد أن يرى هذا الذهب الحسّى، أم متعته هى الإنفاق منه، والمشاعر التى تعود عليه من هذا الإنفاق؟ هذا هو المتاع الحقيقى. متاع النفوس العالية. أما النفوس التى غرقت فى الطين فإنها تستمتع بالمتاع الحسى. وكلما زاد المال المكدس أمامهم شعروا بالانتفاش. ولكنهم يضمحلون فى داخل أنفسهم لفراغ أرواحهم. أما الذى تمتلئ نفسه وتنمو فهو الذى ينفق فى سبيل الله. إنه يرد على نعمة الله بالشكر، ويسعد بالنمو النفسى كلما اشترك معه غيره فى الخير الذى أنعم الله به عليه.

ومجىء الدعوة إلى الإنفاق هنا بعد تحريم الربا لفتة للمؤمنين، أن طريقهم للاستزادة ليس عن طريق تشغيل المال فى الربا، إنما عن طريق إنفاقه فى سبيل الله.

والصفة الثانية أنهم يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس.

ويشجعهم الله على هذه الرفعة النفسية بأن يقول لهم:

﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾.

إن كظم الغيظ والعفو عن الإساءة أمر ليس سهلا فى كل حالة، وليس سهلا على جميع النفوس. ففى النفس نزعة إلى الثأر والانتقام. وحين يستثار الإنسان فأول ما يتحرك فى نفسه هو الرغبة فى الانتقام ممن أثاره. والإسلام لا يمنع أن يأخذ الإنسان حقه ممن اعتدى عليه. ولكنه يربى الإنسان ليرتفع بنفسه على لحظة الغضب وعلى دفعة الغضب فيكظم الغيظ ويعفو عن المسىء. وهذه التربية الربانية تحتاج فى الحقيقة إلى جهد يبذله الإنسان حتى يصل إلى هذا المستوى. والأمور التى من هذا النوع لا يفرضها الإسلام على الناس فرضا، بل يجعلها تطوعا، ويحبب الناس فى هذا الخلق النبيل. وسيجىء فى نهاية الدرس بيان حكمة مجىء هذا التوجيه الربانى فى هذا السياق، وذلك حين نتكلم عن الدرس الشامل الذى تتضمنه هذه الآيات.

ثم ينتقل السياق نقلة أخرى إلى الذين ﴿ **إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾.

وقد يخطر فى بالنا سؤال : وهل فى المؤمنين من يفعل فاحشة أو يظلم نفسه؟

نعم إن الإسلام ما نزل ليغير طبائع البشر . ما نزل ليجعل من الناس ملائكة . ولو شاء الله أن يجعل من البشر ملائكة لخلقهم منذ البدء ملائكة ، ولكلفهم تكاليف الملائكة : ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٢٠] .

ولكن هذا الإنسان مزيج عجيب غير مكرر . مزيج من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله :

﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [ص : ٧١ ، ٧٢] .

وهذا المخلوق له أحوال خاصة به ، والله سبحانه وتعالى هو خالقه العليم به :

﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك : ١٤] .

إنه يعلم سبحانه وتعالى طبيعة هذا المخلوق ، ويعلم أن له لحظات رفعة ولحظات هبوط . ولا يطرده من رحمته حين تلم به لحظة هبوط . إنه ـ وهو خالقه ـ يعلم أنه عرضة للخطإ الذى قد يصل إلى الخطيئة ، فتتسع له رحمة الله الواسعة ولكن على شرط :

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ .

هذه لفتة موجهة للقلب البشرى ليسارع إلى طلب المغفرة :

﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . .** ﴾ .

وحين يستغفر ، وحين يتوب ، فإن الله يمنحه مغفرته :

﴿ **وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾؟!

الشرط ألا يصروا على ما فعلوا : ﴿ **وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

﴿ **أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ .

من العاملون؟! إنهم هم الذين أخطئوا ولم يصروا على خطئهم ولا خطيئتهم. لقد وقع الواحد منهم فى الحفرة فلم يتلبث فيها. إنما ذكر الله، فقام من الحفرة ونفض التراب عن ثوبه، وتوجه إلى الله تائبا مستغفرا. وهذا هو العمل الذى يقول الله عنه: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾.

قارن هذا بالذى وقع فى الحفرة فاستعذب الطين والتراب، فبقى فى الحفرة، ولم يتحرك، ولم يتوجه إلى ربه طالبا المغفرة، واستمر فى معصيته. إن الأول الذى قام وعمل قد استحق رحمة الله ومغفرته والجنة أيضا، بل جنات - بالجمع - كما ورد فى الآية، خالدا فيها..

فى مجرى هذا السياق كله تأتى الآيتان:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

فى سياق الأوامر الربانية، وفى سياق المعصية والتوبة تأتى هذه الآية لتأمر الناس أن يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المكذبين، الذين يظلمون أنفسهم فلا يرجعون ولا يتوبون ولا يستغفرون، وإنما يصرون على ما فعلوا. يصرون على التكذيب وهم يعلمون.

هؤلاء مصيرهم مختلف..

وقد ذكرنا من قبل أن هناك فرقا بين تمكين المؤمنين وتمكين الكافرين.. وهنا يوجِّه المؤمنون إلى دراسة التاريخ لينظروا كيف تكون عاقبة المكذبين فى النهاية ولو مكنوا إلى حين. ولنا هنا وقفة.

إن التاريخ ينبغى أن تعاد كتابته من زاوية إسلامية، وهى تختلف كثيرا عن التاريخ الذى نقرؤه وندرسه لأبنائنا فى مدارسنا مكتوبا بيد جاهلية غربية، لا تؤمن بالله ولا رسله ولا وحيه، ولا تفرق بين تمكين الرضا وتمكين الاستدراج - تمكين المؤمنين وتمكين الكافرين - لأن المهم عندهم هو الغلبة. يقولون: البقاء للأصلح. وهى قولة فى ذاتها صحيحة. ولكن ما معيار الصلاح عندهم؟ المقياس عندهم هو القوة: القوة السياسية والقوة العسكرية والقوة العلمية والقوة المادية. أما الإيمان.. أما الأخلاق.. أما القيم العليا، فهذه ساقطة من الحساب.

انظروا كيف يقدم التاريخ المكتوب فى الغرب الإمبراطورية الرومانية مثلا! وانظروا كيف يقدمها التفسير الإسلامى للتاريخ. لقد قامت الإمبراطورية الرومانية على السلب والنهب واستعباد الآخرين وإذلالهم. والإمبريالية التى تعيش اليوم هى وريثتها والامتداد التاريخى لها، وأساليبها هى نفس أساليبها. وفى التاريخ الغربى تعتبر كلها ناجحة. الإمبراطورية الرومانية فى القديم، والاستعمار الأمريكى والروسى والبريطانى والفرنسى. كلهم ناجحون بمعيار الحيوان الدروينى المتطور الذى يقيس به الغرب الإنجاز البشرى. أما معاييرنا نحن فهى معايير الإنسان الذى خلق من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، أعطته الوعى والإرادة والحرية، وجعلت لأعماله قيمة خلقية لأن الله هداه النجدين: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]. ففى ميزان الإسلام ـ حين نكتب التاريخ من زاوية الرصد الإسلامية كما وجهنا الله ـ تكون هذه الأمجاد التى يتحدث عنها التاريخ الغربى أمجادا جاهلية. ولا بد لنا من أن ندرس تاريخ هذه الأمم على أنه تاريخ الجاهليات: القديمة والوسطى والحديثة والمعاصرة. أما تاريخ الأمم المؤمنة فيفرد له تاريخ خاص، لا يخلط بتاريخ الجاهلية. ويبدأ تاريخنا بآدم المؤمن والأجيال العشرة المؤمنة التى أخبرنا بها رسول الله ﷺ، ثم يأتى الانحراف. وليس الانحراف هو الأصل كما يقول التفسير الغربى للتاريخ..

هذه قضية لا يتسع لها هذا الدرس(١)، ولكنا نشير إليها بمناسبة قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

وهذا درس آخر.

ويجىء هذا الدرس بعد هزيمة أحد. وله مكانته الخاصة لأنه جاء بعد الهزيمة.

إنه دعوة من الله للمؤمنين ألا يهنوا ولا يحزنوا، وأن يشعروا باستعلاء الإيمان.. والشرط وارد فى نهاية الآية: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) راجع فيها إن شئت كتاب «حول التفسير الإسلامى للتاريخ».

وهذا التوجيه له أهمية قصوى فى حياة المسلمين. ومجيئه فى أعقاب الهزيمة يجعل دلالته واضحة. إنه لم يجئ فى أعقاب نصر. ففى النصر يحدث الاستعلاء بصورة تلقائية. لكن العبرة أنه بعد الهزيمة يقول لهم: ﴿أَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾. هم الأعلون؟ وهم مهزومون؟ فبماذا هم الأعلون؟ لا بالقوة العسكرية ولا بالقوة المادية ولا بالقوة العلمية ولا بتعداد البشر... ﴿أَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ بالإيمان.. مكانكم أعلى لأنكم عرفتم الحق، وعبدتم الله الحق، وعبدتموه العبادة الحقة، فأنتم الأعلون، ولو مرّ بكم عارض هزمكم أمام أعدائكم.. ولو مرّ بكم أى ظرف من ظروف الحياة الدنيا. ﴿أَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ ما دمتم مؤمنين. لأن قاعدتكم أعلى وقاعدة الكفار أدنى. حتى لو كانوا متمكنين عسكريا وماديا واقتصاديا.. لأنهم لم يعرفوا الله الحق.

وهكذا يقيس المؤمن أموره بالنسبة لغير المؤمنين.. على قاعدة الإيمان لا على قاعدة التمكين فى الأرض.. ويدعو الله المؤمنين أن يستعلوا بالإيمان ولو كانوا فى هزيمة عارضة أمام الكافرين.

هذا الدرس وعاه المسلمون قرونا متوالية.. إلا فى الفترة الأخيرة.. وعوه وهم منهزمون أمام الصليبيين فى الحرب الصليبية الأولى، ووعوه وهم منهزمون أمام التتار. ولقد بلغ الأمر أيام التتار كما تروى كتب التاريخ ـ بعد مذبحة بغداد التى جرى النهر فيها أربعين يوما أحمر من الدم ـ أن التترى كان يخرج من بيته وليس معه سيفه، فيلقى المسلم فى الطريق، فيقول له: ابق مكانك حتى أحضر السيف لأقتلك، فيبقى مكانه لأنه لا مهرب أمامه، حتى يأتى التترى فيقتله. ومع ذلك لم يهن المسلمون فى داخل أرواحهم، ولم يشعروا قط أن أعداءهم أعلى منهم ولا أنهم يملكون خيرا مما يملك المؤمنون، بل كانوا ـ بالنسبة للصليبيين خاصة ـ يحتقرونهم احتقارا مرا، وكانوا يقولون عنهم إنهم ديايث لا أعراض لهم، يكون الواحد منهم سائرا فى الطريق مع زوجته فتلتقى بصديق لها، فيتنحى الزوج ليترك الزوجة تتكلم مع صديقها. فكانوا يحتقرون هذا الخلق احتقارا عنيفا. كما كانوا يسمونهم عبّاد الصليب، ولا يقيمون لهم أى اعتبار.

مرة واحدة فى التاريخ حدثت الهزيمة الروحية إزاء الأعداء، وأحس المسلمون أن أعداءهم أعلى منهم. ذلك حين هزم المسلمون فى الحرب الصليبية الثانية التى نعيش آثارها فى واقعنا المعاصر، حين جاء الصليبيون معهم بالغزو الفكرى، وظنّ

المسلمون ـ لأول مرة فى تاريخهم ـ أن أعداءهم يفضلونهم، وأن ما عند أعدائهم من الأفكار والنظم والمبادئ خير مما عندهم. بينما الذى عندهم هو المنهج الربانى الذى أنزله الله ليصلح به البشرية كلها، وجعل هذه الأمة مسئولة عن إقامة هذا المنهج فى الأرض: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]. لأول مرة فى تاريخهم غفل المسلمون عن هذا الدرس العظيم: ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ فكيف غفلوا؟ ولماذا غفلوا؟!

نعود إلى الآية: ﴿ **وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾: ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾، فأنتم الأعلون. فما دامت هذه الأمة قد فقدت استعلاءها على الباطل فابحث عن حقيقة إيمانها. إنه إيمان مدخول قطعًا، يحتاج إلى تصحيح ويحتاج إلى ترسيخ، وإلى عودة الأمة إلى الطريق الصحيح ليعود لها الاستعلاء بالإيمان، وليمكّن لها فى الأرض مرة أخرى إن شاء الله.

هذا الدرس نزل قبل أربعة عشر قرنا، ونسمعه اليوم كأنه موجه إلينا شخصيا. وهذا هو القرآن ـ كتاب الله ـ يخاطب الأمة فى كل لحظة فتحس كأنها هى المخاطبة به مباشرة، لا الآباء وحدهم ولا الأجداد وحدهم؛ لأن الخطاب فيه موجه إلى الأمة إلى قيام الساعة.

﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾.

وهذه سنة من السنن التى نبهنا إليها السياق القرآنى من قبل. فقد قال الله: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ** ﴾ وهذه واحدة من السنن. فلا النصر يبقى دائما ولا الهزيمة دائمة. فالذين هزموا اليوم ينتصرون غدا إذا استجمعوا أدوات النصر وتوجهوا إلى الله سبحانه وتعالى فيخرجهم مما هم فيه، حسب سننه التى يجريها على البشر فى الأرض.

﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ** ﴾.

توجيه تربوى آخر. إن الشهداء يسقطون فى الطريق، وطريق الدعوة مملوء

بالشهداء، لأنه مملوء بالوحوش الضارية التى تلتهم دماء البشر . . ولا طريق غيره! ليس هناك طريق آمن للدعوة. ومن سنن الله أن يتخذ شهداء. وهل هو سبحانه فى حاجة إلى الشهداء؟ لماذا يتخذهم؟ إن الله غنى عن عبادة العباد كلهم. ولو أن أهل الأرض جميعا كانوا على أتقى قلب رجل منهم مازاد ذلك فى ملك الله شيئا، ولو أنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك فى ملك الله شيئا. ولكن الله كرّم هذا المخلوق وفضله على كثير ممن خلق، وجعل قدره سبحانه يجرى من خلال أعمال الإنسان. وهو يتخذ من البشر شهداء من أجل صلاح الإنسان ذاته، ولكى تستقيم حياته فى الأرض، وهو الغنى سبحانه والناس هم الفقراء إليه.

فبم يشهد الشهداء؟ إنهم يشهدون أن هذا الدين حق، وأنهم على استعداد لأن يبذلوا ثمنا له أغلى ما يملكون، وهو دماؤهم وأرواحهم.

وحين يشهدون هذه الشهادة على هذا النحو، تنجذب القلوب إلى هذا الدين وتهفو إليه. لأن الناس حين يرون المؤمنين به يبذلون دماءهم وأرواحهم رخيصة فى سبيله يوقنون أنه الحق، وأنه المنهج الصحيح، فيؤمنون به، ويقيمون منهجه، فتستقيم حياتهم ويقومون بالقسط:

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد: ٢٥].

ومن خلال الشبكة الكبيرة من السنن المتشابكة المتداخلة التى يجرى الله بها قدره فى حياة البشر جعل فى الأرض كفاراً ومؤمنين، وجعل صراعا دائرا بين الحق والباطل، وقال سبحانه: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة ٢٥١]. وقال: ﴿ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ﴾ [محمد: ٤] ومن خلال هذا التدافع، وفى أثناء هذا الابتلاء، يسقط الشهداء معلنين للبشرية كلها أن هذا الدين هو الحق، وأن المنهج الربانى أغلى من حيوات الأفراد، وأغلى من دمائهم وأرواحهم.

﴿ **وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾.

والظالمون هم الذين قتلوا الشهداء. والله لا يحبهم. ولكنه فى الوقت ذاته يمكّن لهم - وهو لا يحبهم - لحكمة يريدها سبحانه:

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾.

إن الله سيمحق أولئك الظالمين الذين لا يحبهم. ولكن المحق يأتى بعد تمحيص المؤمنين، تمهيدا للتمكين لهم فى الأرض ليعطوا النموذج الصحيح الذى تستقيم به الحياة فى الأرض، والذى تهفو إليه القلوب البشرية:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

ويعلم الله سبحانه أن التمحيص يتم من خلال الابتلاء، وأن الابتلاء الذى يسقط فيه الشهداء هو الذى يطهر القلوب ويجعلها تتجرد لله.

ومن حكمته سبحانه أن التمحيص يتم فى فترة استعلاء الباطل، وعن طريق استعلاء الباطل:

يقول تعالى:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

جاء هذا المثل (فى سورة الرعد) والمؤمنون يفتنون فى مكة. والفتنة فى اللغة هى وضع الذهب والفضة على النار حتى تنصهر فتنفصل عنها الشوائب العالقة بها، ويبقى المعدن النفيس نقيا خاليا من الشوائب. والقلب البشرى يفتن على نار الابتلاء حتى تنفصل عنه الشوائب العالقة به، ويتطهر ويتجرد لله.

وفى مكة، ومن خلال الابتلاء، ومن خلال استعلاء الباطل وانتفاشه، تجرد قلب رسول الله ﷺ وتجردت قلوب الصحابة رضوان الله عليهم. فكان الله يقول لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾

[الرعد: ٤٠]. وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه»[1].

وحين علم الله من قلوبهم أنها تجردت له مكّن لهم فى الأرض، فأعطوا ذلك النموذج الفريد الذى لم تعرفه البشرية قط إلا فى هذا الدين. النموذج الذى يمسك ميزان العدل من منتصفه فلا يميل به هنا أو هناك، فيتحقق العدل الربانى فى واقع الأرض.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾؟

هذا السؤال الإنكارى موجه للذين يستعجلون الطريق، أو يضيقون بما فيه من متاعب، فيقولون يارب: متى نصل؟ لِمَ يطول الطريق؟ لِمَ تكتنفه الصعاب؟

لأن الجائزة هى الجنة! ولابد من جهد يبذل للحصول عليها.. ومهما يكن فى الجهد من مشقة فنعيم الخلد أكبر وأعظم. وينتهى الجهد بانتهاء الحياة الدنيا، ويظل النعيم فى الجنة بلا انتهاء!

ونقف قليلا عند قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ..﴾.

هل الله تعالى لا يعلم؟! حاش لله أن يغيب عن علمه شىء.. إنما المقصود أن يظهر ما يعلمه سبحانه وتعالى واضحا أمام الناس.

﴿.. وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

هو الجهاد والصبر.. هما عدة الطريق.. وهما الزاد المؤدى إلى الجنة.. والمؤدى إلى الفلاح فى الأرض، كما جاء فى آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

---

(١) أخرجه البخارى.

تفلحون بعد أن يتم التمحيص، ويمحق الكافرون، ويمكن الله لدينه فى الأرض.

قلت فى أول الدرس إن هناك درسا واحدا شاملا يشمل مجموع هذه التوجيهات كلها التى أشرنا إليها من قبل. والدرس يتلخص فى أن هذه التوجيهات كلها تأتى فى سياق إعداد الأمة لمعركة لا إله إلا الله: تحريم الربا.. المسابقة إلى عمل الخير.. وكظم الغيظ والعفو عن الناس.. والإنفاق فى سبيل الله.. كل ذلك يأتى فى سياق إعداد الأمة لمعركة لا إله إلا الله. فالسورة من أولها مشغولة بهذه المعركة: المعركة مع اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين.. المعركة مع الشيطان فى الضمير.. المعركة فى داخل النفس مع هواتف الضعف والقعود والانصراف عن بذل الجهد اللازم للجهاد.. المعركة مع انحرافات العقيدة وانحرافات التصور وانحرافات السلوك.

إن هذه المعركة فى حاجة إلى النفس البشرية كلها، بكل جوانبها، وليس إلى المدفع وحده أو الساعد وحده.

خذ مثلا تحريم الربا.. هناك حكم كثيرة وراء تحريمه. ولكن أبرزها فى المجال الذى نحن بصدده تطهير النفوس من الحقد، وتوحيد القلوب على المحبة، حتى تدخل معركة لا إله إلا الله مترابطة متوادة فتكون فى المعركة كالبنيان المرصوص:

﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ [الصف: ٤].

وكذلك الإنفاق فى سبيل الله، وكظم الغيظ والعفو عن الناس. كله منظور فيه إلى تأليف القلوب، وتخليصها من أحقاد الأرض التى تثقل النفوس..

والتوجيه إلى ذكر الله والاستغفار والتوبة حين يقع الخطأ أو الخطيئة، إنه توجيه إلى تطهير النفس من أدرانها لتتوجه إلى المعركة العظمى طليقة خفيفة نشيطة فلا تتثاقل إلى الأرض:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ**﴾ [التوبة: ٣٨]؟

وهكذا تأتى كل هذه التوجيهات : الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحربية والنفسية والفكرية والأخلاقية ، لتؤدى كل منها مهمتها ، ثم تؤدى مجتمعة مهمتها الكبرى فى إعداد الأمة لمعركة لا إله إلا الله ، وهى أكبر مهمة تؤديها هذه الأمة لتحقق غاية الوجود البشرى فى ذات نفسها ، ثم تكون شاهدة ورائدة لكل البشرية :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الدرس الرابع

﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٦].

* * *

اخترت هذا الدرس ـ أو هذه الدروس ـ من سورة الأنفال لأرد على بعض التساؤلات التى تجيش فى خواطر الشباب عن الحركة الإسلامية: لماذا لم تمكن فى الأرض حتى الآن؟ لماذا لم تصل إلى غايتها؟ هل عن خطإ فى طريقة عملها؟ أم لظروف خارجة عن إرادتها؟ وهل يقدر لها النصر والتمكين أم يذهب جهدها هباء؟! وهى أسئلة كثيرة تتوارد على أذهان الشباب قلقًا على الحركة الإسلامية التى اصطلحنا على تسميتها «الصحوة الإسلامية»، ورغبة وشغفا أن يرى الشباب ثمرة جهده وجهاده فى زمن قريب. يريد الشباب أن يروا الثمرة فى أثناء حياتهم، لأنهم لا يحبون أن يطول الزمن وتنقضى أعمارهم قبل أن يروا الثمرة بأعينهم. فأردت أن أبين من سورة الأنفال بعض السنن التى يجرى بها قدر الله فى الأرض.

إن كل شىء فى حياة البشر، وكل شىء فى هذا الكون كله، يتم بقدر من الله. ولكن

قـدر الله يجرى من خـلال سنن. وقـد علمنا الله هذه السنن فى كـتابـه المنزل. علمنا إياها لنسير بمقتضاها، ولنعلم أنه لا شيء يحدث جزافا، لا فى الكون المادى ولا فى حياة البشر. إنما يجرى كل شيء بنظام. بسنن.. وهذه السنن لا تتبدل ولا تـتحول ولا تحابى ولا تجامل. وعلينا نحن أن نسـتقيـم مع مقتـضيـاتها، وليس فى مـقدورنا أن نلوى السنن عن مـجراها لتجاملنا على حساب الحق.

وهذه السنن، أو هذه الدروس التربوية، تبدأ في الحقيقة بآية سابقة على الآيات المذكورة آنفا هى قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ..** ﴾ [الأنفال: ٥٣].

هذه هى نقطة البدء فى هذا الدرس.

لقد كـانت الأمة الإسلاميـة مكرمة وممكنة فى الأرض بنعـمة من الله وفضل. واليـوم نجدها على الحال الذى نعلمـه. فلمـاذا غيّر الله لها هذه النعمة التى كـان قد أنعم بها عليها؟

يقول تعالى إنه لا يغير ﴿ **نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾. أى أنهم إذا ظلوا مـستـقيـمين على الطريـق، مقـدرين للنعـمـة الربانيـة، مـوفين بحق شكرها، فـإن الله لا يغيـرها عنهم، ولا يزيل عنهم التـمكين والرضا الذى مكنهم إياه، ورضى عنهم فيه.

فإذا وجـدنا اليـوم أن حال الأمة الإسـلامـيـة بعيـد عن التمكين والاستـخلاف والتأمين، التى وعد الله بها عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾.. فهل غيّر الله حال هذه الأمة بغير سنّة معينة علّمنا إياها، ونبهنا إليها، وأراد منا أن نستوعبها بعقولنا وأفكارنا لنعمل بمقتضاها: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾.

فلنعد إذن إلى تاريخنا لنعرف ما الذى غيرناه، فكان من جراء ذلك أن غيّر الله الحال، وغيّر النعمة التى أنعم بها على الأمة الإسلامية.

وهذه قضية على غاية من الأهمية . فإن ما أصاب الأمة فى القرون الثلاثة الأخيرة لم يكن جزافا ولا اعتباطا . وما من شىء واحد فى هذا الكون يتم جزافا ولا اعتباطا . كل شىء يسير بحسب سنّة معينة . حقيقة إنه يسير بقدر من الله . ولكن القدر يجرى من خلال السنّة . والسنّة تقول إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فى جميع الأحوال . فإن كانوا فى نعمة فلا يزيل الله عنهم النعمة إلا إذا غيروا إلى سوء . وإن كانوا فى سوء فلا يردهم إلى النعمة إلا إذا غيروا إلى خير .

فما الذى غيره المسلمون فى القرون الثلاثة الأخيرة التى تضاءل فيها ظلهم على الأرض ، وانحسر نفوذهم ، وبدأ الأعداء يتكالبون عليهم ، حتى استولوا فى النهاية على مقدرات العالم الإسلامى كله ، وأذلوه تحت سلطانهم كما نرى الآن؟!

يقول التاريخ إن من أشد ما أصاب المسلمين كان نكبة الأندلس . ثم إن الصليبيين أخذوا يتعقبون المسلمين حول العالم . وكان البرتغاليون أول من تحرك ضد المسلمين . فلما وصلوا إلى البحر الأحمر واستولوا على منافذه السفلى قطعوا خط التجارة الذى كان فى يد المسلمين ، فقد كانت تجارة العالم كله من الصين شرقا إلى الجزر البريطانية غربا وشمالا كلها فى يد المسلمين . فلما اجتاح البرتغاليون مواطن إستراتيجية فى ملك المسلمين واستولوا على مداخل البحر الأحمر وقعت التجارة فى أيديهم ، ومنعوا خيرها عن المسلمين . فبدأ الضعف الاقتصادى ينتاب الأمة ، وبدأت أوروبا تركز نشاطها السياسى والحربى والاقتصادى لإضعاف الدولة الإسلامية .

وهذا الذى يقوله التاريخ صحيح . ولكن أخذ الأمور من سطوحها لا يوصلنا إلى الحقائق الكامنة وراءها . إن القضية أولا وأخيرا هى قضية العباد مع ربهم . كيف حالهم مع الله؟ ذلك أن الذى يقدر المقادير ليس البرتغاليين ، وليس الصليبيين ، وليس اليهود . وليس أحداً من البشر على الإطلاق . إنما يقدرها الله سبحانه وتعالى ، ولكنه يقدرها من خلال أعمال البشر ، وبحسب أعمال البشر . فلو أن الأمة الإسلامية ظلت مستقيمة على الطريق لظل الوعد الربانى متحققا لها بالاستخلاف والتمكين والتأمين ، ولما استطاع الصليبيون أن يسطوا على أرضها ، وما استطاع البرتغاليون أن يستولوا على مداخل البحر الأحمر ، ويسلبوا طريق التجارة من المسلمين ، فيزدادوا هم قوة ويزداد المسلمون ضعفا .

فما الذى فعله المسلمون حتى تمكن الصليبيون أن ينفذوا فى أرض الإسلام؟

إذا بدأنا بالنكبة الأولى ـ نكبة الأندلس ـ فقد كان المسلمون هم المسئولين عما حدث فيها. أما الأعداء فديدنهم أن يقفوا بالمرصاد للأمة الإسلامية، وقد علمنا الله خبرهم وحذرنا منهم. قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وقال عن المشركين كافة: ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فهم إذن متربصون أبدا، مستعدون أبدا لمهاجمة المسلمين، والمسلمون مكلفون أن يعدوا لهم العدة: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فهل قام المسلمون بالشرط فأعدوا القوة التى تصد أولئك الأعداء؟

إن تربص الأعداء بالمسلمين وعدوانهم على أرضهم ليس أمرًا مفاجئا ولا مستغربا، لأنه ناشئ من طبيعة أنهم كفار، لا يؤمنون بـ «لا إله إلا الله»، ولا يريدون أن يمكّن للمسلمين فى الأرض، فهم دائما مستعدون للعدوان، ومحاولة إزالة المسلمين من الأرض. لكن المسلمين مكلفون أن يعدوا القوة اللازمة لإرهاب عدو الله وعدو المسلمين. فإذا قصروا فى إعداد القوة فهو تقصير فى أداء واجب كلفهم الله به، كان من نتائجه زوال السلطان والاستخلاف والتمكين.

هذه واحدة..

والثانية أن الله ـ كما قلنا فى درس سابق ـ قد أخرج هذه الأمة لمهمة معينة، وكلفها تكليفا لم يكلفه أمة أخرى فى التاريخ. كلفها أن تكون رائدة وشاهدة على كل البشرية، وكلفها بالدعوة إلى الله والجهاد فى سبيل الله.

فهل قامت الأمة الإسلامية برسالتها كما كلفها الله؟ ذلك أن الاستخلاف والتمكين والتأمين متوقف على قيام الأمة بواجباتها:

﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ.. ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ.. ﴾ [الحج: ٧٨].

وحين نكلت الأمة عن واجباتها تلك فما الذى حدث فى الأرض؟!

لقد حدثت أمور خطيرة جدا بالنسبة للبشرية كلها، لا بالنسبة للأمة الإسلامية فحسب. فمن تكريم الله لهذه الأمة أن جعل مصير البشرية كلها مرتبطا بأحوال هذه الأمة وواقعها. فحين تكون على رفعة وسمو، متمسكة بحبل الله المتين، يعيش العالم كله فى ظل هذه القيادة المؤمنة حتى ولو لم يدخل فى دين الإسلام، فيسرى النور فى جنبات الأرض، ويسرى معه الخير. وحين تنسى الأمة رسالتها، وتنحرف عن الجادة، فإنها تضل، وتضل معها البشرية.

فحين شغلت هذه الأمة عن رسالتها وانجرفت فى تيار الانحراف برزت أوروبا.. وهى أمة جاهلية لأنها لا تحكم بما أنزل الله. والله سبحانه وتعالى هو الذى قسم الأمم هذا التقسيم. قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]. فجعل الحكم نوعين اثنين لا ثالث لهما: إما حكم الله وإما حكم الجاهلية. فكل بقعة فى الأرض، وكل أمة فى الأرض لا تحكم بما أنزل الله، فهى أمة جاهلية لأنها تتحاكم إلى شرائع الجاهلية.

كيف برزت أوروبا؟ ولماذا برزت؟ وكيف سلبت التمكين من الأمة الإسلامية؟ ليس هذا فقط، بل عادت عليها بالعدوان حتى أذلت المسلمين فى كل الأرض؟

هل حدث ذلك اعتباطا؟ أم حدث بمقتضى السنن الربانية، ومقتضى وعد الله ووعيده؟

وحين برزت أوروبا فإن الشر الذى أصاب البشرية لم يقف عند كون أوروبا أمة جاهلية، تحكم الأرض بجاهليتها، وتجر البشرية كلها إلى نكسة فى كل القيم العليا، وانحدار حيوانى وتحلل أخلاقى، بل تعدى الشر إلى حدث آخر أشد سوءا،

هو بروز اليهود وسيطرتهم على أوروبا، وسيطرتهم من ثم على كل البشرية، وجرها إلى مزيد من الانتكاس والتحلل والانحدار!

أريد أن تتدبروا معى **«ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»** - وأنا أستعير هذه العبارة من أبى الحسن الندوى، الذى ألف كتابا بهذا العنوان.

لقد برزت أوروبا لتملأ المساحة - المادية والمعنوية - التى انحسرت عنها الأمة الإسلامية. ولكن كيف ملأتها؟ وكم أحدثت فى الأرض من الشرور؟

الاستعمار وحده يكفى، واستعباد الشعوب وإذلالها..

إنه قانون الغاب: القوى صاحب الحق Might is Right، والقوى يأكل الضعيف. وقد وقع هذا الشر - أول ما وقع - علينا نحن المسلمين. فقد انطلق الحقد الصليبى كله، مدفوعا بالعوامل الاقتصادية والسياسية والحربية، ليستذل المسلمين فى كل الأرض، ويعتدى على أرضهم وأموالهم وكراماتهم وأعراضهم، وأول كل شىء على دينهم وعقيدتهم.

ثم قامت حضارتهم المادية على أساس إبعاد الدين عن الحياة، وإقامة الحياة كلها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية والعلمية على مبعدة من الدين، بل على عداء مع الدين..

وأخرجت المرأة من بيتها ومن وظيفتها، ونُفخ فيها بدعوى الحرية، ودعوى المساواة، ففسدت أخلاقها، وفسد الرجل معها، وتحطمت الأسرة وانحل المجتمع، وتحول إلى مباءة خلقية لا مثيل لها فى التاريخ.. وسرى هذا الشر إلى الأرض كلها - بحكم غلبة أوروبا عليها - وسمى هذا الشر حضارة وتقدما ورقيا وتطورا وانطلاقا!

وفوق ذلك كله برز اليهود بكل ما يحملون فى طويتهم من شرور، برزوا لينفخوا فى النار ويؤججوها حتى تلتهم الكيان البشرى كله، ليحققوا حلمهم القديم فى استعباد البشرية كلها لشعب الله المختار!

وبالنسبة لنا نحن صارت أمامنا قوتان معاديتان تحاربانا حربا لا هوادة فيها: الصليبية العالمية كلها، واليهودية العالمية معها. وبالنسبة لبقية البشرية صار اليهود هم القوة التى تعبث بمقدراتهم وتتحكم فى شئونهم.

كيف تم ذلك؟ كيف برز اليهود على السطح، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال فيهم: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا.. ﴾ [آل عمران: ١١٢]؟

كيف صاروا اليوم القوة العالمية التى تسيطر بأفكارها الشريرة ومخططاتها الشريرة على العالم كله بمعسكريه، وعلى ما بين المعسكرين مما يسمونه «العالم الثالث»، ويقصدون به العالم الإسلامى بصفة خاصة؟!

وقبل أن نبين كيف برزوا، ومسئولية الأمة الإسلامية عن بروزهم، نعود إلى كتاب الله لنستفسر منه: هل حدث ذلك مخالفا لسنن الله، أو مخالفا لوعد الله ووعيده؟ حاش لله أن يحدث شيء فى الكون كله مخالفا لسنن الله، أو مخالفا لوعد الله ووعيده.. فكيف إذن برزوا وسيطروا وقد توعدهم الله بالذلة الأبدية؟!

إن هناك استثناء فى سورة آل عمران، فى قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ و﴿ إِلَّا ﴾ كما نعلم حرف استثناء. أى أنه تجيء حالات استثنائية بقدر من الله، يبرز فيها اليهود ويمكنون فى الأرض، ﴿ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾. وهم اليوم فى قمة حالتهم الاستثنائية التى أشارت إليها الآية الكريمة فى سورة آل عمران.

﴿ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى بقدر منه ومشيئة، وبمدد من الله. فإنه لا يحدث شيء فى الكون بغير قدر ومشيئة، ومدد من الله.

﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾.. تأييد من الناس.

وقد يتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة أن الحبل من الناس هو تأييد أمريكا المطلق بغير حدود، أو تأييد غيرها من الدول. ولكن الآية تشمل الناس جميعا، إلا من رحم ربك. والواقع اليوم أن كل البشر - إلا من رحم ربك - هم جنود لليهود.. وليس فى هذا القول مبالغة وإن بدا الأمر كذلك!

خذ السينما على سبيل المثال..

السينما فن يهودى: فكرا ومالا وتخطيطا، لإفساد أخلاق الأمميين.. فكل فتى أو فتاة فى الأرض أصابه جنون السينما فهو حبل من الناس يمد اليهود. يمدهم

بالمال، ويمدهم بالفساد فى ذات نفسه فيحقق لهم مخططهم الرامى إلى إفساد أخلاق الأمميين وعقائدهم لتسهل السيطرة عليهم وتسخيرهم لمصالح الشعب الشيطان!

جنون التليفزيون.. جنون الفيديو.. جنون الكرة.. جنون الأزياء.. جنون الزينة.. كلها أنواع من الجنون بثها اليهود فى الأرض..

كيف برز اليهود؟

القصة باختصار أنه حين قامت الصناعة فى أوروبا بعد اختراع الآلة - أى ما يطلقون عليه فى تاريخهم لفظ «الثورة الصناعية» - كان لا بد من تمويل الصناعة، وهذا أمر مفهوم بالبداهة. وكان المال الوفير الذى يمكن أن يموّل الحركة الصناعية فى أوروبا يومئذ مركزًا فى فئتين اثنتين: أمراء الإقطاع، والمرابين اليهود. فأما أمراء الإقطاع فقد رفضوا تمويل الثورة الصناعية لأنهم فلاحون - وإن كانوا إقطاعيين - والفلاح لا يغامر بماله فى دورة مجهولة بالنسبة له، وكانت تعتبر يومئذ مغامرة غير مضمونة، فقد كان كثير من الصناعات لا يحقق أرباحا، بل يخسر فى كثير من الأحيان!

أما المرابون اليهود فقد أقدموا على تمويل الثورة الصناعية بفرحة بادية! لماذا؟ لأنهم لا يخسرون شيئا! فهم يقرضون المال بالربا ومقابل ضمانات.. فسواء كسب المقترض أو خسر فالمال عائد إلى اليهودى، بالإضافة إلى الربا الذى يفرض على القرض. بل إن المال فى كثير من الأحوال قد لا يكون ماله الشخصى، إنما هى أموال المودعين الذين أودعوها عنده! (وتلك فكرة البنك الربوى، وهى فكرة يهودية الأصل).

وهكذا أقبل اليهود على تمويل الثورة الصناعية بلعاب سائل وقلوب متطلعة إلى السيطرة على العالم. وبالفعل تجمع الذهب فى أيديهم نتيجة الربا، فصاروا يشترون بالذهب رجال السياسة ورجال الفكر، وصارت وسائل الإعلام العالمية فى أيديهم، فصاغوا - عن طريقها - مجتمعا جديدا على هواهم.. لا دين فيه ولا أخلاق ولا تقاليد، هو الذى نراه اليوم على سطح الأرض، إلا من رحم ربك.

ما مسئولية الأمة الإسلامية فى هذا الشأن؟

إنها مسئولية ضخمة جدا، وإن كنا نهمل الحديث عنها حين نتحدث عن التاريخ. ويجب علينا حين ندرّس التاريخ لأبنائنا أن نبرز هذا الدور الخطير الذى لعبته الأمة الإسلامية بانحسارها ونكولها عن رسالتها، ونبين لأبنائنا بوضوح «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

ولنتصور أن الأمر قد وقع على صورة أخرى، لا لنغير قدر الله، فإن قدر الله لا يتغير، ولكن لنحدد بالضبط مدى الخسارة التى خسرتها الأمة الإسلامية وخسرها العالم كله من جراء انحسار الأمة الإسلامية وعدم أدائها لرسالتها.

لقد كانت الأمة الإسلامية هى الأمة العالمة فى الأرض، وكانت الأندلس موئلا للبشرية كلها تتعلم فيه. ولم تخرج أوروبا من ظلمات قرونها الوسطى المظلمة إلا حين احتكت بالمسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وفى صقلية المسلمة وفى جنوبى إيطاليا الذى كان مسلما، وفى المشرق الإسلامى. وكانت أوروبا ترسل مبعوثيها إلى تلك البلاد ليتعلموا، لأن العلم كله كان فى يد المسلمين. سواء العلم الشرعى أو العلم الدنيوى كالطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك.

فما الذى كان يتوقع لو حافظت الأمة الإسلامية على إسلامها، وعلى رسالتها التى كلفها الله بها وهى جزء من إسلامها، ومن أسس رسالتها طلب العلم الذى هو فريضة كما أخبر رسول الله ﷺ؟

أين كان يتوقع أن تخترع الآلة؟

كان المتوقع أن يحدث ذلك فى بلاد المسلمين بوصفها بلاد العلم والحضارة والتقدم.

ولو قامت الثورة الصناعية فى بلاد المسلمين، فهل كانت تقوم لليهود قائمة؟ لقد كان المسلمون جديرين أن يديروا الثورة الصناعية بغير ربا لأن دينهم يحرّمه، وأن يبحثوا عن القنوات الشرعية التى تجرى فيها العملية الصناعية والحركة التجارية والاقتصادية المنبثقة عنها.. وعندئذ لم يكن لليهود أن يبرزوا ولا يسيطروا، فإنما كانت الوسيلة الكبرى التى برزوا بها وسيطروا هى المال الذى تدفق إلى أيديهم عن طريق الربا الذى جعلوه عصب الثورة الصناعية ومدارها كله.

ولو أن المسلمين فعلوا ما أمرهم الله به، لعلّموا الدنيا كلها كيف يكون الاقتصاد

اللاربوى، وكيف تدار الصناعة والتجارة بغير مخالفة لمنهج الله، فيمنح الله بركته للناس فى الأرض:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.. ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وإذن لشهد العالم كيف يكون التقدم العلمى والحضارى فى ظل العقيدة، دون تصادم ولا تعارض كالذى حدث فى الصورة التى قدمتها أوروبا والجاهلية المعاصرة.

وإنها لخسارة ضخمة تلك التى خسرتها البشرية من انحسار المسلمين عن أداء رسالتهم. فقد برزت أوروبا الجاهلية التى أقامت حضارتها على غير هدى من الله، بل معاندة لله بسبب ظروفها الخاصة التى نشأت من فساد الكنيسة وطغيانها.. ومن خلال الثغرات التى قامت فى تلك الحضارة الجاهلية نفذ اليهود، وسيطروا على مقدرات البشرية.

ولنعد إلى نكبة الأندلس ذاتها.. كيف حدثت؟ ولقد حكم المسلمون الأندلس ثمانية قرون متوالية، ومن الأندلس انتشر النور الربانى فغمر أوروبا وأيقظها من غفلة العصور الوسطى المظلمة لتتعلم وترتقى وتتقدم..

لقد أترف المسلمون فى الأندلس.. والترف مهلكة. وقد حذر الله فى كتابه المنزل- كما حذر رسوله ﷺ -من مفسدة الترف، وكيف أنه يصرف الناس عن طريق الله، وأن المترفين-بترهلهم-يكرهون الجهاد فى سبيل الله، ويكرهون أن يذكروا الآخرة لئلا يحرمهم ذكرها من الترف الذى يعيشون فيه: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

﴿ .. وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٨].

أترف المسلمون حكاما ومحكومين، فبدءوا يترهلون، وبدأت تشغلهم الحياة الدنيا فأخذوا يتقاتلون عليها. ولما تقاتلوا استعان بعضهم ضد بعض بالصليبيين.. ومن هنا استولى الصليبيون على الأندلس وطردوا المسلمين منها.. بقدر من الله، نعم، ولكن جرى قدر الله من خلال أعمال البشر، وعقابا للمسلمين على مخالفة أمر الله. فقد نهاهم الله نهيا صريحا عن اتخاذ بطانة من غير المسلمين:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

كما نهى الله نهيا خاصا عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

وحين وقع المسلمون فى المخالفة جاءهم العقاب الربانى. فتمكن الصليبيون وطردوا المسلمين من الأندلس بعد المذابح البشعة التى أوقعوها فيهم. ثم قسم البابا أرض المسلمين ـ وسماها أرض الكفار! ـ إلى دولتى إسبانيا والبرتغال، وكلفهما أن يتعقبا المسلمين خارج الأندلس. وكان البرتغاليون هم الذين بدءوا بتعقب المسلمين، فداروا حول الشاطئ الإفريقى حتى اكتشفوا رأس الرجاء الصالح. وبهذه المناسبة فإننا ندرّس لأبنائنا فى درس التاريخ أكاذيب ومغالطات، ونعطيها لهم كأنها حقائق، بينما نحجب الحقائق عنهم بتأثير الغزو الفكرى الذى صب صبّا فى كتب التاريخ. فنحن نعلّم أبناءنا أن فاسكو داجاما هو الذى اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح. ويا لها من أكذوبة إذا أطلقت على هذا النحو. لقد اكتشف فاسكو داجاما طريق رأس الرجاء الصالح لنفسه، ولأوروبا، لأنهم لم يكونوا يعرفونه من قبل. أما المسلمون فقد كانوا يعرفون هذا الطريق من أربعة قرون سابقة على الأقل، وكانت تجارة العالم كله من الصين إلى أوروبا تمر عبر هذا الطريق، كما تمر أيضا عن طريق البحر الأحمر إلى مصر ثم تكمل دورتها إلى أوروبا عن طريق البحر الأبيض، وكان المسلمون يعرفون خرائط إفريقيا وخرائط آسيا معرفة لا جغرافية

فحسب، بل ملاحية أيضا. وكان عندهم كتب لإرشاد السفن فى البحار والمحيطات فى حالات المد والجزر على طول الشواطئ الإفريقية والآسيوية.

جاء البرتغاليون وداروا حول رأس الرجاء الصالح، ثم اتجهوا إلى جزر الهند الشرقية ـ التى هى اليوم إندونيسيا ـ ومن عجب، بل مما يثير الأسى قبل العجب، أن الذى قاد سفينة فاسكو داجاما إلى تلك الجزر هو البحار العربى المسلم ابن ماجد!! ولولا قيادة ابن ماجد، ولولا الخرائط الإسلامية الجغرافية والملاحية ما استطاع فاسكوداجاما أن يصل إلى هناك. ولما وصل قال كلمته الشهيرة التى لا ندرِّسها لأبنائنا، لأن أعداءنا الذين كتبوا لنا كتبنا ووضعوا لنا مناهجنا لا يحبون أن يطّلع أبناؤنا على هذه الكلمة. قال: «الآن طوقنا رقبة الإسلام ولم يبق إلا جذب الحبل ليختنق فيموت!». وتلك هى الرحلة الصليبية التى نقول لأبنائنا إنها رحلة علمية استكشافية هدفها كشف «مجاهل» الأرض من أجل البحث العلمى!! إن الأرض التى اكتشفها لم تكن «مجاهل» إلا بالنسبة لأوروبا! أما بالنسبة للمسلمين فقد كانت أرضا مأهولة معمورة، يعرفها المسلمون، ويقيمون معها كل أنواع الصلات التى تقوم بين البشر: العلمية والثقافية والتجارية، والدينية قبل كل شىء!

واستولى البرتغاليون كذلك على مداخل البحر الأحمر، ليقطعوا التجارة عن المماليك الذين كانوا يمثلون القوة الإسلامية يومئذ، فزاد المسلمون ضعفا وزادت أوروبا قوة، وحدث ما حدث فى التاريخ.

لقد جلنا جولة فى التاريخ.. وكان لا بد لنا منها، لنتعرف على مجرى السنن الربانية فى واقع الأرض.

زاد المسلمون ضعفا، وجاء الصليبيون واليهود واحتلوا الأرض الإسلامية وعاثوا فيها فسادا. وكان أول عبث لهم تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم فى بلاد المسلمين.

ونحن ندرس لأبنائنا ـ بتأثير الغزو الفكرى كذلك ـ أن أوروبا لا يهمها إلا مصالحها الاقتصادية! وأن الاستعمار الحديث كله كان تَبعثه الدوافع الاقتصادية وحدها! وقد يصل بنا السوء أن نردد ما تزعمه أوروبا من أنها استعمرت العالم الإسلامى من أجل التوابل! ويا لها من أكذوبة مضحكة، تضحك بها أوروبا علينا،

ونضحك بها على أنفسنا! لقّد كانت أوروبا ـ وما تزال ـ تأكل الطعام بلا توابل! ولم تكن التوابل قط هدفا رئيسيا! إنما كانت هدفا تجاريا حين أراد البرتغاليون، ثم بقية الصليبيين من بعدهم أن يستولوا هم على الأرباح التجارية التى يربحها المسلمون من تجارة التوابل!

هل كانت الدوافع الاقتصادية وحدها هى التى حدت بأوروبا إلى استعمار العالم الإسلامى، كما ندرس لأبنائنا فى المدارس والجامعات؟ ويتخرج على هذه القولة قوم يرفعون رؤوسهم باستعلاء ويقولون: إن أوروبا نبذت الدين ولم تعد تهتم به، وحديثكم عن الحروب الصليبية والروح الصليبية إنما هو وَهْمٌ تتوهمونه، ولا وجود له إلا فى أذهانكم! وكل ما تريده أوروبا هو تأمين مصالحها الاقتصادية فحسب؟!

أما أن أوروبا نبذت دينها فنعم! وأما أنها نسيت روحها الصليبية فوهم يكذبه الواقع! ومن شاء منكم أن يعرف الحقيقة فليذهب إلى أوروبا سائحا أو طالب علم ليرى بعينه كيف ينظر الأوروبيون إلى المسلم الملتزم. إنهم يهشون فى وجه المسلم الذى فقد دينه لأنه يحقق الهدف الذى يسعون إليه. أما المسلم الملتزم، وبخاصة المسلمة المتلزمة المتحجبة، فاذهبوا وانظروا بأنفسكم كيف يتعاملون معها فى المطار، فى الطريق، فى كل مكان.. لتعلموا أن الروح الصليبية ما تزال قائمة، وأن أوروبا نبذت دينها ولكنها لم تتخل قط عن روحها العدائية تجاه الإسلام. ولست أنا الذى أقول هذا من عندى ـ وإن كنت قد شاهدته وعاينته فى شوارع باريس ولندن ـ إنما يقوله الصرحاء منهم أنفسهم..

يقول المستشرق الكندى المعاصر «ولفرد كانتول سميث Wilfred Cantwell Smith فى كتاب له اسمه «الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History» ما ترجمته: «إن أوروبا لا تستطيع أن تنسى الفزع الذى ظلت تزاوله خمسة قرون متوالية، والإسلام يغزوها من الشرق والغرب والجنوب، ويقتطع فى كل يوم جزءا من أجمل أجزاء الإمبراطورية الرومانية، ويكاد يستولى على العاصمة ذاتها. لقد كان انتصار الإسلام كاسحا ـ لا فى الحرب فقط ـ لكن فى عالم القيم أيضا. فالإسلام هو الدين الوحيد الذى استطاع أن يجذب إليه ملايين من النصارى دخلوا فيه، والذى نظر إلى المسيحية التى تعتز بها أوروبا نظرة اشمئزاز وتقزز على أنها دين شرك».. ثم يقول فى نهايه كلامه: «ذلك الفزع (الذى لا تستطيع أوروبا أن تنساه)

لا يدانيه شيء فى العصر الحديث، ولا فزع أوروبا من استيلاء الشيوعية على تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٨م»[١].

هذه شهادة رجل منهم . . وبهذه الروح الصليبية انطلقت أوروبا تستذل العالم الإسلامى، وكان أول إذلال قامت به هو تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم فى بلاد الإسلام.

ولقد كان لهم مآرب شتى من تنحية الشريعة الإسلامية، أولها إرواء الحقد الصليبى الذى يهيجه رؤية شرع الله مطبقا فى الأرض وممكّنا له. ثم إنهم يريدون نشر الفساد فى الأرض والشريعة تقف فى طريقهم.

يريدون تنصير المسلمين . . ولا يحق لنا نحن أن نسميه «التبشير» كما يطلقون عليه هم، فإنهم يبشرون بجهنم وبئس المهاد . . يريدون التنصير فهل يستطيعون أن ينصروا مسلما واحدا والشريعة قائمة وحد الردة يطبق على المرتد؟! لابد إذن من تنحية الشريعة لكى ينشروا النصرانية.

ويريدون أن ينشروا الخمر والزنا فى المجتمع. فهل يستطيعون أن يتعالنوا بالخمر والزنا فى مجتمع تطبق فيه الشريعة؟! بالطبع لا يمكن. فلا بد من تنحية الشريعة لتصبح الخمر على قارعة الطريق، ويصبح الزنا ـ كما صار ـ أمرا معترفا بشرعيته.

من أجل هذا نحوا الشريعة . . ومن أجل أمر آخر أخبر عنه رسول الله ﷺ ـ وهم يعرفونه جيدًا: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٦] ـ قال رسول الله ﷺ: «لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة، كلما نقضت عروة تشبث الناس بالتى بعدها، فأولهن نقضا الحكم، وآخرهن نقضا الصلاة»[٢]. فهم ينقضون العروة الأولى ويعلمون أن بقية العرى لا تبقى ثابتة. وهكذا حتى وصلوا إلى نقض عروة الصلاة.

* * *

نطوى تلك الصفحة، وقد استرسلنا فى الحديث عنها، ونفتح صفحة الصحوة

---

(١) انظر ص ١٠٥، ص ١٠٦ من الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦، مطبعة جامعة أكسفورد، لندن.

(٢) رواه أحمد والطبرانى.

الإسلامية، وهى التى تثور تساؤلات الشباب حولها: لماذا لم تمكن بعد؟ لماذا طال الطريق؟ هل هناك خطر على هذه الصحـوة أن تتـذاوب وتتـلاشى، أم إن طول الطريق لا يؤثر على مصير الصحوة؟

ومن أجل الرد على هذه التساؤلات نعود إلى دروس سورة الأنفال.

إن الصحوة هى قدر الله الغالب: ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٢١]. ومن قدر الله الغالب ألا تخلو الأرض من دين الله أبدا إلى يوم القـيـامـة: «لا تزال طائفـة من أمـتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة..»[١]. ومهما حدث فى الأرض من أحداث فلن ينتهى هذا الدين، لأن الله هو الذى تكفل بحفظه:

﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [الصف: ٨، ٩].

هذا الدين باق ـ بإذن الله ـ إلى يوم القيامة. تنحرف الأمة الإسلامية حتى تشرف على الهاوية، ثم يغلب قدر الله الغالب، فتعود الأمة إلى الطريق مرة أخرى.

ولقد انحرفت الأمة مرات عديدة فيما مضى، وأعادها الله بقدره الغالب.. وفى هذه المرة أيضا تعود، بعد أن ظن كثير من الناس أنها انتهت إلى غير رجعة.

ولقد كان الأعداء قد خططوا تخطيطا محكما ليقضوا على الإسلام القضاء الأخير. وكان فى تخطيطهم إزالة الخلافة العثمانية وتفتيت العالم الإسلامى وإنشاء إسرائيل والتمكين لليهود فى داخل الأرض الإسلامية. وكان من التخطيط كذلك تعاون الصليبية والصهيونية وتناسيهما كل ما كان بينهما من عداء فى الماضى ليتألبا معًا على الإسلام.

ويوم زالت الخلافة العثمانية أصاب العالم الإسلامى يأس قاتم. وكان المسلمون كاليتيم الذى فقد أباه. كل ما حولهم ظلام، وكل ما ينظرون فيه إلى مستقبلهم ظلام.

---

(١) رواه أبو داود.

وظن الأعداء لفترة من الوقت أنهم قضوا لبانتهم، وأن الإسلام قد انتهى إلى غير رجعة. ولكن قدر الله الغالب جعل هذا الأمر ذاته بداية انبعاث جديد:

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وانتشرت الصحوة واجتذبت إليها ألوفًا من الشباب، أرجو أن يكونوا اليوم قد أصبحوا ملايين.

ولم يكن الأعداء ليهادنوا هذه الحركة وهم الذين ظنوا أن تخطيطهم المحكم قد قضى القضاء الأخير على الإسلام. وتصوروا إنسانا ظل يترقب أن تسقط الثمرة فى يده، وفى اللحظة التى كادت الثمرة تسقط بالفعل، وجدها قد ابتعدت عنه، ولم تعد يده تطولها.. كم يكون حنقه؟! وكم يبلغ حقده؟!

وإذا أردنا أن نأخذ فكرة عن ذلك التخطيط المحكم فعلينا أن نرجع إلى المؤتمر الصهيونى الذى عقده هرتزل فى مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧م، وقرر المؤتمرون - بل المتآمرون - فى ذلك المؤتمر أنه لا بد من إقامة الدولة اليهودية خلال خمسين عاما. وإذا حسبنا التاريخ نجد أن الدولة قامت بالفعل بعد خمسين عاما بالضبط (١٨٩٧ - ١٩٤٧) فماذا فعلوا فى تلك الخمسين عاما؟

لقد بدءوا بمحاولة رشوة السلطان عبد الحميد، فقدموا إليه كل ما يصبو إليه حاكم أرضى همه سلطان الأرض - كما صوروا السلطان عبد الحميد زورا وبهتانا - ولو كان صحيحا ما صوروه به لقبل تلك المغريات التى قدمها له اليهود فى مقابل السماح لهم بإقامة وطن قومى لهم فى فلسطين.

كانت الدولة تعانى سياسيا وحربيا واقتصاديا.

فأما سياسيا وحربيا فقد كان الأعداء يؤلبون الأقليات غير الإسلامية لتتمرد على الدولة. فكانت روسيا تحرض الأرثوذكس (الأرمن) وبريطانيا تحرض البروتستانت، وفرنسا تحرض الكاثوليك، وما تكاد الدولة تفرغ من إخماد تمرد حتى تواجه تمردا آخر. وأثر ذلك كله فى اقتصاديات الدولة لإنفاقها المستمر على إخماد هذه الحركات. وهنا تعهد هرتزل بأن يتوسط لدى روسيا وبريطانيا وفرنسا لتكف عن إثارة تلك الأقليات، كما تعهد بتنشيط اقتصاد الدولة المتدهور عن طريق قروض طويلة الأجل.. ماذا يريد حاكم طاغية همه السلطان أكثر من أن تستقر

بلاده سياسيا وحربيا وتنتعش اقتصاديا؟ ولكنهم لم يكتفوا بهذا، بل عرضوا على السلطان رشوة خاصة لشخصه مقدارها خمسة ملايين جنيه إسترليني ذهبا، كانت في ذلك الوقت تساوى شيئا كثيرا جدا بالنسبة لعملات اليوم. وكان رد الرجل المسلم هو ما سجله التاريخ. قال: إن هذه ليست أرضى ولكنها أرض المسلمين، وقد رووها بدمائهم، وفى كل شبر منها شهيد، ولا أملك أن أتنازل عن شبر واحد منها. وكان جزاؤه على هذه القولة الصادقة المؤمنة أن عزلوه وسجنوه، وعبثوا بالدولة العثمانية، ثم أشعلوا الحرب الكبرى الأولى لتكون نتيجتها تحطيم دولة الخلافة. ومن مآسى هذا التاريخ للأسف أنهم لعبوا بالمسلمين فجعلوهم معسكرين متعادين بدلا من أن يكونوا أمة واحدة متراصة متساندة. فأثاروا النعرة الطورانية عند الأتراك ـ وهى قوميتهم الجاهلية قبل أن يسلموا ـ وأثاروا عند العرب نعرة القومية العربية، وأثاروا الثورة التى نسميها فى تاريخنا «الثورة العربية الكبرى» ليجيشوا جيشا مسلما يحارب دولة الخلافة. ويقول لورد أللنبى قائد الجيش العربى: لولا معاونة الجيش العربى ما استطعنا أن نتغلب على تركيا! وأللنبى هذا هو الذى دخل القدس غازيا عام ١٩١٧ وقال قولته الشهيرة: الآن انتهت الحروب الصليبية!! أى حين استرد الصليبيون القدس انتهت الحروب الصليبية! وهى ما انتهت.. وما تنتهى أبدا طالما كان هناك مسلمون فى الأرض، ولكنها قولة تظهر الحقد الصليبى الذى ينطوى عليه قلب ذلك الرجل، الذى سمح له العرب أن يقود جيشهم «المسلم» ليحارب دولة الخلافة!

هزمت تركيا، وفتت العالم الإسلامى إلى دويلات، ووضعت فلسطين التى يراد إقامة الدولة اليهودية فيها تحت الانتداب البريطانى، وكان وزير الخارجية البريطانية يومئذ يهوديا ـ وهو اللورد بلفور الذى أصدر وعد بلفور المشهور ـ والمندوب السامى البريطانى «صمويل هَوَرْ» يهوديا كذلك، وهو الذى عهد إليه بالإشراف المباشر على الأرض التى ستقام فيها إسرائيل.

وهذه الدويلات التى قسمت إليها المنطقة كانت دويلات ضعيفة سياسيا بعد إزالة الخلافة، وضعيفة حربيا أيضا، جيوشها للزينة والاستعراض فقط، يشترى سلاحها من بريطانيا وفرنسا صديقتى اليهود، حتى الذخيرة تشترى من هناك. فإذا كفت بريطانيا وفرنسا أيديهما عن مدّ تلك الجيوش بالذخيرة توقفت الحرب!

وكانت ضعيفة اقتصاديا كذلك لتخلفها وعدم قيام الصناعة فيها. وفوق تخلفها فهى متعادية متنابذة، وكلما كانت قريبة بعضها من بعض كانت العداوة بينها أشد!

هل اكتفى المخططون بهذا التخطيط الرهيب لإضعاف العالم الإسلامى؟!

لقد كانوا أخبث من ذلك، وأبعد نظرا..

فالشباب قوة خطرة إذا كانت له اهتمامات جادة. ولا تستطيع إسرائيل أن تقوم، فضلا عن أن تتوسع لتصبح «إسرائيل الكبرى» إذا كان الشباب فى البلاد المحيطة بها ذوى اهتمامات جادة. ومن هنا كان لا بد من تمييع الشباب وتتفيه اهتماماته، وصرفه عن معالى الأمور إلى سفسافها، لكى لا يكون قوة خطرة على الدولة التى يريدون إنشاءها، فسلطت عليه السينما، والمسرح، والشواطئ العارية، والصحافة العارية، والأدب الهابط، والغناء الماجن، وكل وسائل التفاهة والانحلال.

واطمأن العدو تماما من كل الوجوه. فالقوة السياسية لا وجود لها، والقوة الحربية لا وجود لها، والقوة الاقتصادية لا وجود لها، والشباب ذو الاتجاهات الجادة لا وجود له.. فماذا يخشى الأعداء؟! عندئذ أعلنوا قيام دولتهم.. بعد خمسين عاما بالضبط من مؤتمر هرتزل..

شىء واحد فوجئوا به، لم يكن فى حسبانهم ولا فى تصورهم! وهو دخول الفدائيين المسلمين فلسطين عام ١٩٤٨م.

كانت قد أنشئت حرب مسرحية بين العصابات اليهودية والجيوش العربية، كانت تلك الجيوش تتحرك فيها حركات لا يمكن تفسيرها إلا بأن هناك يدا تمسك بالخيوط من وراء الستار.. وكان اليهود يعرفون جيدا حقيقة هذه الجيوش، والهدف الذى جاءت من أجله، والغاية التى تنتهى إليها، وهى الوقوف فى النهاية عند خط التقسيم المتفق عليه سلفا بين المتحاربين!!

وحين جاء الفدائيون، واصطدم بهم اليهود عرفوا من فورهم أن هؤلاء غير أولئك! فهؤلاء لم يجيئوا ليؤدوا دورا فى مسرحية الحرب المتفق عليها.. إنما جاءوا لهدف جاد.. جاءوا وهم أحرص على الموت من حرص أعدائهم على الحياة. وحين عركوهم وعرفوا حقيقتهم كانت الصيحة التى يسمعونها منهم: صيحة «الله

أكبر ولله الحمد» تجعلهم يفرون من مستعمراتهم، تاركين سلاحهم وذخيرتهم ومؤنهم، لينجوا بجلودهم. .

عندئذ تقرر بصورة حاسمة أنه لا يمكن أن تقوم إسرائيل وهؤلاء أحياء يدبون على الأرض. وأنه لكى تقوم إسرائيل ولكى تبقى، فضلا عن أن تتوسع فى المستقبل، فلا بد من إبادة الحركة الإسلامية.

وهذا هو التاريخ الذى نعيشه إلى هذه اللحظة، وآخر صوره هى الانتفاضة الإسلامية القائمة اليوم فى فلسطين، والتى أفزعت اليهود حقا، وأفزعت العالم الصليبى حقا.

إن القضية ليست قضية التراب. إنما هى قضية العقيدة. واليهود يعرفون جيدا من هم أعداؤهم الحقيقيون. إن أعداءهم هم الذين يقولون لا إله إلا الله، محمد رسول الله، إيمانا بها، وجهادا فى سبيلها.

وهجمت الصليبية بثقلها كله ومعها الصهيونية لمحاولة إبادة الحركة الإسلامية بعد أن رأوا بأعينهم أن الخطر على قيام الدولة اليهودية هو هذه الحركة الإسلامية. وذبّحوا وقتّلوا وعذّبوا وشرّدوا مما هو معروف مشهود. . وتخوف قوم على هذه الحركة فقالوا: ما مصيرها؟ هل مصيرها إلى الفناء؟ إلى التذاوب والتلاشى؟ أم إنها ستمكّن فى الأرض، وإذا كان مكتوبا لها التمكين فما الذى أخر التمكين حتى هذه اللحظة؟!

وهنا نرجع إلى السنن الربانية نستلهمها الجواب.

إن السنن الربانية لا تحابى أحدا ولا تجامل أحدا، ولو كان من شأنها أن تجامل أحدا لكان أولى الناس بالمجاملة إبراهيم عليه السلام يوم ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن، واجتاز الابتلاء بدرجة عجيبة من النجاح، وكان فى قمة الابتلاء أمر الله له بذبح ولده الحبيب إسماعيل: ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات: ١٠٢] ولقد كافأه الله مكافأة عظيمة بقدر نجاحه فى الابتلاء: قال ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ﴾ [البقرة: ١٢٤] فلما رغب إبراهيم عليه السلام أن يكون هذا العهد فى ذريته

فهل جاملته السنن الربانية؟ : ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] أى أن العهد فى ذريتك ما استقاموا على الطريق، فإن انحرفوا فلا عهد لهم عند الله. هكذا سنة الله: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر: ٤٣].

فهل استقامت الأمة الإسلامية على الطريق أم انحرفت عنه؟

وحين تنحرف فهل تجاملها سنة الله؟

لا بد لكى تستحق الأمة النصر أن تلتزم بشروط النصر. لا بد لها من أن تعود إلى طريق الله. والصحوة الإسلامية تبشر بهذه العودة. ولكن كم حجم الصحوة بالنسبة لمجموع الأمة؟

إن تعداد الأمة اليوم يزيد على ألف مليون من البشر. وهو أكبر عدد وصلت إليه هذه الأمة فى التاريخ. وهو مصداق قول رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: إنكم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل**»[1].

وكم يبلغ حجم الصحوة الإسلامية حتى الآن؟! نرجو أن يكون قد بلغ الملايين، ولكن حين يقاس إلى الألف مليون نجد أن حجمها ما زال صغيرا بالنسبة للمتسيبين والمتفلتين والغافلين والمارقين. وأنه لابد أن يذكّر هؤلاء جميعا ويدعوا إلى العودة للإسلام، لكى تتحقق شروط النصر.

وهنا سؤال يرد دائما حين نقول هذا الكلام: هل ننتظر حتى تستيقظ الأمة كلها، وتتربى الأمة كلها؟ كلا! لا أحد يقول ذلك! فهذا كلام غير منطقى وغير معقول. وإن مجتمع الرسول نفسه ﷺ لم يكن كله على مستوى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. بل كان فيه المنافقون وضعاف الإيمان الذين ورد فيهم قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ٧٧]؟ وكان فيهم المثّاقلون والمثبطون:

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ [التوبة : ٣٨] ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء : ٧٢]. وكان فيهم الذين يتبعون الإشاعات فيطيرون بها فزعا أو فرحا دون تثبت : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ . . ﴾ [النساء : ٨٣]. هؤلاء كلهم كانوا فى أمة محمد ﷺ ، ولكن كانت هناك قاعدة صلبة مؤمنة حملت هؤلاء جميعا وسارت بهم لا يعوّقونها عن الوصول إلى أهدافها .

وهذا الذى لا بد من أن يحدث اليوم .

لا بد من أن تقوم مثل هذه القاعدة مرة أخرى فى العالم الإسلامى . قاعدة مؤمنة مجاهدة صلبة ، تستطيع أن تحمل المعوقين والمتخاذلين والمتقاعسين وتسير بهم إلى أهدافها . وهذا الذى تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

لو قال لنا سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ . . . ﴾ فهل بعد تأييد الله بالنصر شىء؟ أليس الله هو القائل : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٠].

بلى! إن النصر إذا تقرر من عند الله فقد انتهت القضية ، ولم يعد هناك غالب يستطيع أن يغلب المؤمنين . ولكن هنا لفتة تربوية . . هنا درس تربوى فى قوله تعالى : ﴿ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ لكى نعلم أنه لا بد من وجود مؤمنين يكونون ستارا لقدر الله ، يجرى قدر الله من خلالهم .

وهل يعجز الله سبحانه وتعالى عن نصرة دينه بغير المؤمنين؟!

كلا! إنه لا يعجز سبحانه وهو الذى يقول للشىء كن فيكون . ولكن سنته اقتضت أن يبتلى بعض الناس ببعض : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد : ٤]، ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال : ١٧]. فلابد إذن من وجود قاعدة مؤمنة مجاهدة ليتم نصر الله .

ولننظر إلى الآية التالية : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

لا بد أن تكون قلوب هذه القاعدة متآلفة . لا يصلح الأمر والمؤمنون متفرقون

على النحو السيئ الذى نراه اليوم. جماعات متفرقة تتنابز بالألقاب وتتبادل الاتهامات. لا بد لنا من أن نصل إلى الحالة التى تستحق النصر من عند الله: أن تكون القاعدة المؤمنة ذات حجم معقول، وأن تكون قلوبها متآلفة: ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾.

وتقول الآية التالية: ﴿ **يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أى أنت أيها النبى حسبك الله، ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله أيضا. يعنى لا بد لكم من أن تكونوا متجردين لله.

وهذه صفة ضرورية من صفات المؤمنين التى تؤهلهم للنصر: مؤمنون متحابون متآلفة قلوبهم متجردون لله.

ولقد رُبِّى رسول الله ﷺ من لدن ربه العليم الخبير فى مكة على التجرد لله. وإذا استعرضنا السور المكية لا نجد فيها وعدا واحدا بالتمكين لشخص رسول الله ﷺ. إنما كان يقال له: ﴿ **وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ** ﴾ [الرعد: ٤٠].

وبهذا تجرد قلب رسول الله ﷺ لله، فصار كما وجهه الله: ﴿ **حَسْبُكَ اللَّهُ** ﴾ وربّى على ذلك صحابته رضوان الله عليهم حتى صح قولهم عن أنفسهم، أو قول كتب السيرة عنهم: «خلت أنفسهم من حظ أنفسهم» فلم يعد لهم حظ نفسى حتى فى انتصار الدين على أيديهم - وهى رغبة بشرية شريفة عالية - ولكن حتى هذه تجردوا منها لله، ابتغاء مرضاة الله. فإن شاء نصرهم بأشخاصهم، وإن شاء غير ذلك رضوا به لأنهم تجردوا لله.

﴿ **يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ** ﴾.

أى يجب أن يكونوا أيضا مستعدين للقتال حين يدعو الداعى إليه.

ونقف قليلا عند هذه القضية التى تجعل المؤمن عشرة أضعاف الكافر فى القتال فى حالة القوة وضعفه فى حالة الاستضعاف.

إن هذا ميزان ربانى، ليس من عند أنفسنا. المؤمن يساوى عشرة فى حالة القوة، ولا يجوز أن يقل وزنه وثقله عن اثنين فى حالة الضعف.

من أين يأتى الفرق؟ الرجل هو الرجل، والسلاح هو السلاح، فكيف تحدث هذه العجيبة؟

لقد تعلمنا فى الحساب أن ١ + ١ = ٢ لكن هنا ١ = ٢ و١=٣.. و١= ١٠.

الفارق هنا فى الإيمان، والتجرد لله سبحانه وتعالى، والاستعداد لبذل النفس رخيصة فى سبيل الله.. وكل هذا له ثقل محسوب فى ميزان الله.

فى سورة الأنفال أيضا شرط آخر نختتم به هذا الدرس.

يقول تعالى عن معركة بدر الكبرى إن الله قدرها، وقدر فيها نصر الفئة القليلة المؤمنة على الكثرة الكافرة. وتلك سنة غالبة فى الأمم السابقة، بدليل قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ولكنها وعد دائم بالنسبة لهذه الأمة، ولكن لها شرطًا توضحه هذه الآية:

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

لا بد - لكى يتم النصر - من أن يلتقى الفريقان وقد تبين كل منهما موقفه تماما بلا غبش، وعرف كل منهما لأى شىء يقاتل. هل يقاتل للتراب؟ أم لتكون كلمة الله هى العليا. يقاتل فى سبيل الله أم فى سبيل الطاغوت؟

هل وصلنا إلى هذه الدرجة من وضوح الرؤية عند الصحوة الإسلامية؟ أم لا تزال هناك أشياء لم تتضح بعد فى ذهن الصحوة حين تختلط قضايا وطنية أو قضايا قومية أو قضايا اقتصادية أو قضايا اجتماعية بالقضية الكبرى، قضية لا إله إلا الله.

إن النصر يجىء حين تكون المعركة هى معركة لا إله إلا الله فقط، لا لأى هدف آخر.

ومن بديع صنع الله ولطائف قدره أنه حين تكون القضية قضية لا إله إلا الله وحدها دون أى هدف آخر، فإنه يأتى النصر والتمكين والاستخلاف، ويأتى حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وحين تكون المعركة غير خالصة لـ «لا إله إلا الله» تتشعب بها السبل ولا تصل إلى النصر المنشود.

كلمة أخيرة..

إن الله ينصر الكفار على رغم كفرهم، بل قد يزيد التمكين لهم كلما أوغلوا فى الكفر:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

نعم، ولكنه لا ينصر المؤمنين إلا إذا استقاموا على طريقه! فإن هم اتخذوا الأسباب التى يتخذها الكفار فاعتمدوا على السلاح وحده، أو اعتمدوا على روسيا أو على أمريكا أو على أى شيء آخر دون التجرد لله فإنه لا ينصرهم! إنما ينصرهم فقط حين يستقيمون على طريقه ويتجردون له، ويتخذون الأسباب تعبداً له دون أن يتكلوا على الأسباب، وتكون القضية قد وضحت فى حسهم تماما، فلم تعد مختلطة بغيرها من قضايا الأرض. وحين يحدث اللقاء بينهم وبين الكفار على هذه الصورة يجرى الله سنته، فينصر الفئة القليلة المؤمنة على الكثرة الضالة، ويمكن لدينه فى الأرض.

وإنا لفى الطريق إلى ذلك إن شاء الله. فلا نتعجل الطريق!

لا نقول: لماذا لم ينصرنا الله؟.. بل ننظر إلى واقعنا، وإلى السنن الربانية، وإلى ضرورة بذل مزيد من الجهد بغير ملل وبغير استعجال. لا نقول القولة التى نهى الله عنها: دعونا الله فلم يستجب لنا. وإنما نعمل ونعمل ونعمل، وننتظر النصر من عند الله حين نستوفى شروط النصر التى أمر بها الله.

وسيأتى النصر بإذن لله ويحدث التمكين كما وعد الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. كذلك وعد رسول الله ﷺ بمعركة حاسمة مع اليهود، يتغير فيها وجه الأرض، وتزول القيادة الشيطانية التى تقود البشرية اليوم، وتتولى الأمة المؤمنة قيادة البشرية، فتتغير أحوالها، وتعود الخلافة الراشدة مرة أخرى كما وعد رسول الله ﷺ، فتمتلئ الأرض عدلا كما ملئت جورا من قبل.

الدرس الخامس

﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٤].

* * *

هذا الدرس من سورة البقرة. وما يتسع المجال بطبيعة الحال لاستيعاب السورة بأكملها، وهى أطول سور القرآن، ولكنا سنختار منها آيات متفرقة تحتوى على مجموعة من الدروس.

ولنذكر بادئ ذى بدء أن سورة البقرة هى أول سورة مدنية، وقد نزلت لتنظيم أحوال المجتمع الجديد، وتوجيه حركة الدولة الإسلامية التى بدأت فى المدينة.

كان القرآن يتنزل فى مكة يحمل هدفا واضحا هو ترسيخ العقيدة الصحيحة فى نفوس تلك الفئة التى قام عليها المجتمع الإسلامى، وقامت عليها الدولة الإسلامية، وقام عليها التاريخ الإسلامى فيما بعد. كانت مكة فترة الإعداد للدولة، وكانت نقطة الإعداد الأولى هى لا إله إلا الله، محمد رسول الله، بكل إيحاءاتها وإشعاعاتها ومقتضياتها، لتكون هى الركيزة التى يقوم عليها المجتمع المسلم، وتقوم عليها من ثم الدولة المسلمة، وتجاهد تحت رايتها، وتنشر الهدى فى ظلها. فلما علم الله من قلوب هذه الحفنة من المؤمنين أنها تجردت له، وخلت أنفسهم من حظ أنفسهم، وصار همهم أن يعبدوا الله سبحانه وتعالى ويسعوا إلى مرضاته، مكّن لهم فى الأرض ليحققوا هدف هذا الدين. وقد جاء هذا الدين ليغير

وجه الأرض، لا ليستبدل حكما بحكم، ولا سلطانا بسلطان، ولا قوما بقوم. إنما ليستبدل منهج حياة بمنهج حياة. ولابد للقوم الذين يمثلون المنهج الجديد ويقدمونه للبشرية من أن يكونوا نماذج فذة لهذه المعانى وهذه القيم التى يريد الله لها أن تستقر فى الأرض، ويريد لها التمكين.

من أجل ذلك كانت الفترة المكية فترة التربية والإعداد التى تخرج هذه النماذج التى يكفى لبيان وزنها وقيمتها أن نتدبر هذا التصرف من عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين أرسل إليه عمرو بن العاص من مصر يقول له: إن الروم يحيطون بنا فأرسل إلينا مددا، وكان مع عمرو أربعة آلاف، فأرسل إليه عمر رضى الله عنه أربعة آلاف أخرى وأربعة من صحابة رسول الله ﷺ، وقال له: أرسلت إليك ثمانية آلاف ومعك أربعة آلاف فيكون معك اثنا عشر ألفا، ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة!! وما كان معروفا عن عمر بن الخطاب رضى الله غنه أنه يمزح، إنما كان رجلا صارم الجد. فهو يزن الواحد من صحابة الرسول ﷺ بألف، وقد انتصر الجيش بالفعل بأولئك الأربعة، إذ كلّ منهم طاقة مشعة، تشع الإيمان والصبر والعزيمة والإقدام.. وكلها من أدوات النصر والتمكين فى الأرض.

كانت مكة فترة الإعداد، ثم بدأ التمكين، ونزلت سورة البقرة لتنظم أحوال المسلمين فى ظل التمكين، بعد أن كانوا مجرد جماعة من المسلمين لا سلطان لها فى الأرض. فبأى شىء تتحدث الآيات الأولى من السورة؟

تبدأ السورة بتلك الأحرف: ألف. لام. ميم. ولا نخوض فى أمر هذه الأحرف فإنها مما اختص الله بعلمه، وكل ما يقال بشأنها فهو اجتهادات بشرية. وإن كنا نشير إلى أرجح الاجتهادات دون قطع بها، وهى أنها إشارة إلى أن الكتاب المنزل هو من ذات الأحرف التى ينطق بها البشر ولكنه معجز، لأنه كلام الله.. وفى أغلب السور التى تفتح بحرف أو بمجموعة أحرف يجىء ذكر الكتاب أو الوحى أو الذكر، كما فى سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ..﴾.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

هؤلاء هم الذين جاءوا من مكة مهاجرين، ومن انضم إليهم من الأنصار فى المدينة لينشئوا الدولة الإسلامية بقدر من الله، ثم يسيحوا فى الأرض لينشروا

الهدى الربانى. فما الصفات التى توافرت فيهم، وما الصفات التى يريدها رب العالمين أن تتوافر فى هذه الأمة بصفة عامة؟

أول وصف لهؤلاء المتقين - بعد وصفهم بالتقوى - أنهم ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾. فما قيمة هذه الصفة؟ ما وزنها؟ ما فعاليتها؟ ما دلالتها بالنسبة لهذه الأمة التى أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس؟

إن الإيمان بالغيب هو مفتاح شخصية هذه الأمة، فعن طريقه آمنت بالله، وآمنت بالملائكة، وآمنت باليوم الآخر، وكلها من جذور العقيدة، وكلها - كما سنرى - ذات دلالة معينة فى حياة المؤمنين. ولكنى أريد أن أقف وقفة مع الجاهلية المعاصرة التى تريد أن تغلق هذه النافذة على بنى آدم، فتعيب على المؤمنين أنهم غيبيون، وتعيّرهم بهذا، وتقول لهم: إنكم متخلفون رجعيون لأنكم تؤمنون بالغيب. أما نحن فنؤمن بالعلم، ولذلك فنحن متقدمون فى كل شىء!

وهكذا يضعون العلم فى مقابل الإيمان بالغيب، ويتوهمون أن الذين يؤمنون بالعلم وينكرون عالم الغيب هم المتقدمون المتحضرون الجديرون بالحياة فى العصر الحديث!

ولقد خلق الله الإنسان من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله. وهذه النفخة العلوية من روح الله غيرت طبيعة الطين تماما، فلم تعد فيها عتامة الطين. إنما أشرقت وشفت، وصار لها مزايا ومواهب ليست للطين، ولا للمخلوقات الأخرى التى لم تتشرف بهذه النفخة العلوية. لقد صارت قبضة الطين كائنا له روح ووعى وإدراك، وقدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس. وهذه أبرز صفات الإنسان، التى تريد الجاهلية المعاصرة أن تنزعها منه وترده.. إلى ماذا؟!

ترده إلى أحد شيئين. فأما غرب أوروبا فقد رده إلى «الحيوانية» على يد دارون. وأما شرق أوروبا الشيوعى الملحد فقد رده إلى الوراء مسافة أبعد.. رده إلى «المادة» أى إلى قبضة الطين بمعزل عن نفخة الروح.. كلا المنهجين فى الحقيقة لا يعترف بإنسانية الإنسان، ولا يريد أن يضعه فى موضعه الصحيح. وكلا المنهجين يعزل قبضة الطين وحدها، سواء فى صورة «المادة» أو فى صورة «الحيوان» ويضع منهج حياته على أساس هذا التصور الفاسد عن الإنسان.

فأما المذهب المادى فقائم على أساس أن قوانين المادة تحكم حياة الإنسان، وتشكل «حتمية» مادية وتاريخية تتحكم فى كل مجالات حياته: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والاعتقادية، فلا يملك الإنسان إلا أن يذعن لها، ويعيش بحسب مقتضياتها على طريقة القهر الذى تسير به السموات والأرض!

وأما فى غرب أوروبا فالداروينية قد ردت الإنسان حيوانا. وهم بطبيعة الحال لا يقولون إنه مجرد حيوان، إنما يقولون إنه حيوان متطور. ولكن ما الذى تطور فيه؟!

تقول الداروينية إن الإنسان كان يسير على أربع، أيام أن كان حيوانا، ثم شب على قدميه ليأكل ثمار الأشجار. فلما تعود أن يقف منتصب القامة أتيح لرأسه أن يستقر على الجذع بدلا من أن يكون معلقا فى الهواء كرأس الحيوان، وبذلك أتيحت الفرصة لمخه أن يكبر حين أصبح ثقله يرتكز على الجذع، فتكلم وفكر!!

ولا نريد أن ندخل فى جدل مع الداروينية! ولكنا نتساءل فقط: لماذا لم يكبر مخ الأورانج أوتانج، أحد القردة العليا الأربعة التى يجعلها داروين أسلاف الإنسان، بينما هو يقف ساعات طويلة على قدميه، ولذلك يسمى أحيانا «إنسان الغاب».. لماذا لم يفكر ويتكلم كما حدث للإنسان؟!

ومهما يكن من أمر، فالداروينية ـ والتصور المبنى عليها ـ يحصران التطور فى الجانب العقلى وحده، أما ما نسميه نحن الجانب الروحى فهو ملغى من الحساب. لذلك يكون معيار الإنجاز البشرى فى التصور الغربى هو البراعة السياسية والبراعة الحربية والبراعة العلمية والبراعة المادية. أما الدين، والأخلاق، والقيم المستمدة من الدين والأخلاق، فلا وزن لها عندهم، لأنه لا مكان لها فى عالم الحيوان، متطورا كان أم غير متطور!

وفى المقابل فإن أول صفة يوصف بها المتقون فى كتاب الله هى أنهم ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾، لأن هذه هى الميزة الكبرى لهذا المخلوق: قدرته على الإيمان بما لا تدركه الحواس.

إنه يؤمن بما تدركه حواسه، ولكنه بالإضافة إلى ذلك يؤمن بما لا تدركه الحواس. وهذا من التكريم الذى كرمه الله به وفضله به على كثير ممن خلق:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠].

وتريد الجاهلية المعاصرة أن تنزع عنه هذا التكريم وهى تزعم أنها تكرمه وتحرره من «الوهم»! وتلغى إلغاء كاملا دور الإيمان بالغيب فى ترقية حياة الإنسان ودفعها إلى الأمام.

إنهم - فى تعسفهم - يضعون الإيمان بالغيب مقابل الإيمان بالمحسوس. فإما هذه وإما تلك! إما أن تؤمن بالغيب، وإما أن تؤمن بالمحسوس.

والإنسان - كما خلقه الله - ليس كذلك. ولا دين الله كذلك!

دين الله يقرر الحقيقة الكاملة الشاملة للإنسان:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨].

فهو يشير ويشيد بالحواس بوصفها طريقا للتعلم، ويشير ويشيد كذلك بالقدرة على الإيمان بما وراء الحس - عن طريق الأفئدة - لأنها طريق آخر - بل هى الطريق الأول - للتعلم.

فالإنسان مشتمل على الجهازين معا: جهاز الحس، وجهاز الإيمان بالغيب، وبالجهازين معا يتعلم الإنسان كل ما يحتاج إليه فى حياته. فأما ما يتناول ضروراته الحسية فهو يتعلمه عن طريق عقله وحواسه، وأما ما يتناول ضروراته الروحية من عقيدة وقيم عليا فهو يتعلمه عن طريق الغيب. وهو بكلا الأمرين هو «الإنسان». وهو ذلك المخلوق المكرم المتميز الذى كرمه الله وفضله على كثير من خلقه. ولكن أى جانبيه هو الذى يؤكد «إنسانيته» ويقرر «رفعته» ويمنحه ميزته الكبرى. إنه - ولا شك - الجانب الروحى، جانب الإيمان بالغيب. الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.. ومن هنا يبرز الله هذه الصفة بادئ ذى بدء، ويجعلها الصفة الأولى للمتقين.

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

وهذه الصفة للمؤمنين ترد كثيرا فى القرآن سواء فى السور المكية أو السور المدنية، ولها دلالتها ولاشك على أهمية هذين الأمرين بالذات فى حياة المؤمن. الصلاة هى صلته بالله، والإنفاق فى سبيل الله هو رباط المجتمع القوى المتماسك الذى يستطيع أن يحقق الصورة الصحيحة التى يحبها الله. وبهاتين الخلّتين يتكون الفرد الصالح والمجتمع الصالح كلاهما فى آن.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾.

وهذه نقطة ثانية يشار إليها هنا فى بدء تكوين الدولة الإسلامية..

هل لها دلالة معينة؟ أم إنها مجرد وصف للمتقين؟!

كل كلمة فى كتاب الله ذات دلالة.. لا شىء فيه يأتى اعتباطا.

فأما إيمان المتقين بما أنزل على رسول الله ﷺ فهو مقتضى إيمانهم بالغيب. وهو طريقهم إلى معرفة ما يلزم لهم فى دنياهم وآخرتهم، من عقيدة صحيحة، وعبادة صحيحة، وشريعة محكمة تحكم حياتهم بالحق والعدل، وتعطى كل شىء وضعه الصحيح.

وأما إيمانهم بما أنزل من قبل رسول الله ﷺ، فهو قضية مهمة قد لا نلتفت إليها كثيرا ونحن نتلو سورة البقرة، ولكن لها أهمية كبيرة فى حياة هذه الأمة، وفى المهمة التى أخرجت هذه الأمة من أجلها.

لقد كانت كل أمة سابقة تؤمن برسولها الذى أرسل إليها ولا تؤمن بمن بعده - إلا قلة منهم - فيقع الصدام بين الفريقين.

آمن اليهود بموسى عليه السلام ولم يؤمنوا بعيسى، فكان بينهم وبين النصارى ما هو معلوم من التاريخ. فقد اضطهد اليهود أنصار عيسى عليه السلام، وسعى «شاول» اليهودى إلى إفساد العقيدة النصرانية، وكان له فى إفسادها القدح المعلى! فقد أدخل فيها التثليث، وتأليه عيسى، وادعاء بنوته لله سبحانه وتعالى، وذلك بعد أن ادعى أنه آمن بعيسى، وأن «الرب الإله» تجلى له وهو خارج متجه إلى مزيد من التنكيل بأنصار عيسى عليه السلام، فخر مغشيا عليه فى الطريق، وكلمه الرب وهو فى غشيته، فأنبه على اضطهاد المؤمنين به، وألهمه أن يدعو للدين الجديد!

فقام من غشيته مؤمنا بالثالوث، وبألوهية عيسى وبنوته لله، ومضى «يبشر» بالدين الجديد الذى ابتدعه ليقتلع به الدين الصحيح من الأرض!!

وأما النصارى من جانبهم فقد اضطهدوا اليهود على أساس أنهم صلبوا المسيح بعد إذ لم يؤمنوا به، وظل هذا الاضطهاد قائما فى أوروبا حتى القرن التاسع عشر حين تغيرت الأحوال بعد الظروف التى أشرنا إليها فى الدرس السابق. كما أنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، واضطهدوا أتباعه فى كل مكان كانت لهم السيطرة فيه.

وخلاصة الأمر أن كل أمة من تلك الأمم السابقة لا تصلح لقيادة البشرية، لأنها آمنت برسول وكفرت برسول آخر، فأصبح بينها وبين أتباع الرسول الآخر معركة وحقد داخل النفس.

وأما هذه الأمة فقد أخرجها الله لتكون هى الحاكمة فى الأرض، وهى الرائدة لكل البشرية:

﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن الأدوات المعينة لهذه الأمة على إحسان القيادة للبشرية كلها أن الله نزع الحقد من قلبها على الأمم السابقة، وجعل من شروط إيمانها أن تؤمن بما أنزل على الرسول ﷺ وما أنزل من قبله، وألا تجد فى نفسها حرجا من أى رسالة سابقة لأنها تؤمن بها جميعا، كما أن رسالتها هى الرسالة الخاتمة فلا يجىء بعدها شىء يعكر عليها صفو إيمانها.

فهذه الصفة التى وصف الله بها هذه الأمة لا تجىء اعتباطا، إنما هى مزية من مزايا هذه الأمة تؤهلها للزعامة العالمية، ولحكم البشرية، وللعدل بين الذين لا يؤمنون بمحمد ﷺ من أهل الكتاب، ما داموا ليسوا محاربين، لأنها لا تحمل حقدا دينيا لأحد، وهى مأمورة بإجراء العدل بين الجميع اتباعا لرسولها ﷺ، الذى أمره ربه: ﴿ **وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ** ﴾ [الشورى: ١٥].

هذه القدرة على العدل، أو هذه القدرة على القيادة العادلة لم توهب إلا لهذه الأمة. ولم تعرف البشرية ـ ولن تعرف ـ حكما عادلا أو زعامة عادلة إلا على يد

الأمة الإسلامية. وواقع اليوم يؤيد ذلك حيث تتولى أوروبا ـ ومن فوق أكتافها اليهود ـ قيادة البشرية، فيذيقونها الخبال. وقد رأينا كيف يكون أمر المسلمين بالذات حين تكون قيادة البشرية فى يد اليهود أو النصارى، بينما لم يجد أهل الكتاب ـ على اختلاف ألوانهم ـ أرضا أرحب ولا حكما أعدل من حكم المسلمين لهم، حين حكم المسلمون الأرض وكان فيها يهود ونصارى مختلفو المذاهب يقاتل بعضهم بعضا ويضطهد بعضهم بعضا، ولكنهم فى ظل الدولة الإسلامية يعيشون عيشة راضية، محفوظة لهم حقوقهم، آمنين فى عبادتهم. ومع علم المسلمين بضلالهم فى عبادتهم إلا أن الله أخرج الغل من قلوبهم تجاههم ليعد هذه الأمة لقيادة البشرية.

إن هذه الأمة ذات مهمة ضخمة جدا، عرفتها أم لم تعرفها، قامت بها أم فرطت فيها.. لقد أخرجت للقيادة، لا لتكون فى ذيل القافلة، ولا حتى على قدم المساواة مع الأمم الجاهلية. إنما أخرجت لتكون القيادة فى يدها، ولذلك أرسل لها الرسول الخاتم ﷺ، أعظم قائد فى تاريخ البشرية، صنعه الله على عينه، كما قال عن موسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] فجعله أعظم شخصية فى تاريخ الأرض، وجعل أمته كذلك أعظم أمة حين تقوم بتكاليف دينها على الوجه الصحيح، وشهد لها خالقها ومخرجها فقال سبحانه وتعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

فلينظر المسلمون كم خسرت البشرية بزوال القيادة الإسلامية. ولتذكر هذه الأمة دائما أنها لم تخرج لتعيش فى حدود نفسها فحسب، وعلى أى مستوى كان، إنما أخرجت لتقود البشرية كلها إلى الحق. إلى النور. إلى المنهج الصحيح.

وفى الدرس السابق أشرنا إلى الثورة الصناعية وكيف أنها نبتت نباتا شيطانيا ربويا فكانت وبالا على البشرية كلها ومكنت اليهود من رقاب المسلمين ومن رقاب البشرية جمعاء. وكان ذلك كله من تقاعس الأمة الإسلامية ونكولها عن مسئوليتها.

ونعود إلى أوصاف المتقين: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾.

والإيمان بالآخرة من أهم أركان العقيدة، وما من أمة أرسل إليها رسول يدعوها لـ «لا إله إلا الله»، إلا دعاها كذلك للإيمان باليوم الآخر. وفى كتاب الله كثيرا ما يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله نفيا وإثباتا. فالمؤمنون يوصفون بأنهم ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [آل عمران: ١١٤] والكفار يوصفون بأنهم ﴿ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء: ٣٨]، مما يدل على أهمية الإيمان باليوم الآخر فى حياة الإنسان.

ويجدر بنا أن نقف وقفة عند حقيقة الإيمان بالآخرة.. هل هو مجرد التصديق بها ومعرفة أنها حقيقة؟!

يستلفت نظرنا من حقائق التاريخ المعروفة أن المصريين القدماء كانوا يؤمنون باليوم الآخر، بمعنى التصديق بوجوده ومعرفة أنه حقيقة. فقد جاء فى كتاب الموتى الذى عثر عليه فى بعض مقابرهم وصف دقيق لليوم الآخر، والبعث والنشور والحساب والميزان والجنة والنار، مما يرجح أنه قد أرسل إليهم رسول من عند الله يعلمهم هذا كله، إذ إن البشر من ذوات أنفسهم لا يتجه تفكيرهم هذا المتجه، ولا يتوصلون إلى مثل هذه المعلومات، التى قد يكون من أعجبها رسمهم للإله على جدران أحد المعابد جالسا على عرش يحمله ثمانية من الملائكة!

ومع هذه الدقة فى معلوماتهم، التى ترجح أنها من بقايا تعاليم جاءهم بها رسول من عند الله، فإن نبى الله يوسف يقول عنهم: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٧].

هكذا.. بهذا التوكيد ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾! فكيف وصفهم نبى الله بهذا الوصف وهو لا ينطق عن الهوى لأنه نبى، مع ما هو معلوم عنهم من وقائع التاريخ؟

نعم! لقد كانوا مع إيمانهم بكل ما جاء فى كتاب الموتى، يؤمنون بأن هناك كلمة «محفوظة» إذا قالها الإنسان مر من الحساب مرور الريح، وأدخل الجنة رأسا بلا حساب! «إذا جاءك الملكان وسألاك، فقل لم أقتل ولم أزن ولم أسرق ولم.. ولم...»، وفى الحال يفتح باب الجنة فيدخل مع الداخلين! إذن فقد بطل مفعول الإيمان باليوم الآخر كله بهذه التعويذة المزيفة وبالكذب على الملائكة! فهل الذى يلقن مثل هذا الكذب يستقيم فى الحياة الدنيا، أم يتبع شهواته استنادا إلى أنه سيمر

بمثل هذا التزوير؟ . . . هذه هى القضية! فليس المقصود بالإيمان باليوم الآخر مجرد الإيمان النظرى أو مجرد العلم والتصديق، إنما المقصود هو المقتضى العملى لذلك العلم والتصديق، وهو أن يعمل حسابا لذلك اليوم العظيم، فيخشاه، ويخبت إلى الله، ويلتزم بما جاء من عنده، فإذا أدركته لحظة ضعف عصى فيها أوامر الله ذكر الله واستغفر ولم يصر على اقتراف ما اقترف:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

وقد ظل كتاب الله المنزل يحدث المؤمنين عن اليوم الآخر بأسلوب القرآن المعجز حتى عاشوا اليوم الآخر كأنه هو الحاضر الذى يرونه فى هذه اللحظة، وتعمق الإيمان به فى حسهم حتى صارت الدنيا التى يعيشونها الآن كأنها ماض كان، يذكّرون به تذكيرا! إلى هذا الحد بلغت حيوية الوصف فى كتاب الله لليوم الآخر والجنة والنار، حتى كان المؤمنون الأوائل يعيشون كل لحظة من حياتهم متجهين بفكرهم ومشاعرهم إلى اليوم الآخر، وما فيه من نعيم وما فيه من أهوال، فاستقاموا:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وهناك نماذج كثيرة من أولئك المؤمنين تجلى فيهم أثر الإيمان باليوم الآخر . . فهذا الذى خرج من بيته ليقاتل فى سبيل الله، ومعه تمرات يتقوّت بها، ثم غلبه الشوق إلى الجنة فلم يعد يصبر . . إنه يراها . . إنها ليست خيالا بعيدا . . إنه يعيشها بالفعل، ويراها بحسه وبصيرته، فيقول: لئن عشت حتى أنتهى من هذه (التمرات) إنه لأمر يطول! ويلقى التمرات من يده ليلقى بنفسه فى المعركة ليستشهد فيدخل الجنة . . وذلك الشاب المعرس يبيت فى عرسه مع زوجته، ثم يسمع الهيعة ـ يسمع أصوات المعركة ـ فيخرج من فراش الزوجية إلى المعركة فيستشهد فتغسله الملائكة . . لا يصبر حتى يغتسل لأنه فى شوق إلى الجنة . . لأنه يعيشها فعلا وواقعا ملموسا يملأ عليه حياته . .

لذلك وصف المتقون بأنهم يؤمنون بالآخرة إلى درجة اليقين . .

ولقد أصيبت هذه الأمة بما أصيبت به حين فتر إيمانها باليوم الآخر . إنها مؤمنة باليوم الآخر ولا شك ، ولكن ما مقتضى ذلك الإيمان فى حياتها؟ كيف دخل الشيطان إليها وهى تؤمن باليوم الآخر؟!

دخل يقول لها : إن الله غفور رحيم! ربك رب قلوب! ما دام قلبك عامرا بالإيمان فلا يهمك العمل!

تلك بعض مداخل الشيطان . . ولقد تحدثنا فى أكثر من موضع عن الفكر الإرجائى الذى يقول : إن الإيمان هو التصديق ، أو هو التصديق والإقرار ، وليس العمل داخلا فى مسمى الإيمان!

إن هذا الدين لم يتنزل ليكون كلمات ينطق بها اللسان فحسب ، ولا ليكون مشاعر وجدانية فحسب . الكلمة المنطوقة مطلوبة ، والوجدان الذى يملأ القلب مطلوب . ولكن إذا وقفنا عند الكلمة المنطوقة والوجدان المستسر فى القلب ، فكيف ينهض المسلمون بالمهمة التى أخرجوا من أجلها : ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا؟ هل يستطيعون بهذا وحده أن يخرجو الأعداء من بلادهم؟ هل يستطيعون أن يطردوا اليهود من فلسطين أو يكفوا الروس عن الشيشان؟

إن دين الله أكبر وأشمل وأوسع بكثير من أن يختصر فى كلمة ووجدان . إنه عمل واقعى فى واقع الأرض كما سبق أن بينا فى الدروس السابقة .

* * *

ونمضى شوطا مع السورة . .

إن الآيات التى ذكرناها آنفا تصف المؤمنين . ثم تأتى آيتان تصفان الكفار ، ثم ثلاث عشرة آية متتابعة تصف المنافقين .

هل لذلك من حكمة؟

نعم . إن الكفار واضحون ، وتكفى الإشارة إليهم ليعرفهم المؤمنون بصفاتهم ويتقوهم . أما المنافقون فهم ملتوون ، ولذلك جاء التنبيه إليهم ووصف أحوالهم فى آيات متتابعات .

حين يكون الطريق أمامك مغلقا فتكفى إشارة واحدة تقول لك إن الطريق مغلق. أما حين يكون الطريق ملتويا متعرجا، مرتفعا ومنخفضا، فهنا تحتاج إلى علامات مرور متعددة تحذرك من انحناءات الطريق، وتعرفك بمزالقه. والمنافقون ـ لخفاء حالهم، واختلاطهم بالمسلمين لبث السموم والفرقة فى صفوفهم ـ احتاجوا إلى بيان مفصل ليعرفهم المسلمون ويتقوا شرورهم.

والمنافقون المذكورون فى سورة البقرة، من أول قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [٨] إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [٢٠] هم قوم برزوا فى المدينة بعد أن ظهر سلطان الإسلام، لا هم يؤمنون بهذا الدين، ولا فيهم الجرأة أن يعارضوه علانية، فيتظاهرون بالإيمان به، ويكيدون له من الداخل، وقد كانوا يوالون اليهود.

وهذا يلفتنا إلى درس آخر من دروس سورة البقرة. وهذه السورة كما قلنا هى أطول سور القرآن، لكن إذا تدبرناها نجد أن الجزء الأول كله ما عدا الربعين الأولين هو فى وصف بنى إسرائيل وسرد انحرافاتهم.

ولقد أسلفنا أن هذه السورة نزلت لتنظيم حياة المجتمع المسلم بعد قيام الدولة، فما بال الحديث عن بنى إسرائيل يشغل منها كل هذه المساحة؟ وما بال السورة تتحدث تفصيلا عن أحوالهم مع الله، ومع أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، ومع بعضهم البعض؟

ما الحكمة فى بدء التوجيه القرآنى للأمة المسلمة من أجل تنظيم أحوالها بالحديث المفصل عن بنى إسرائيل؟

هناك أكثر من حكمة. فبنو إسرائيل كانوا فى المدينة هم القوة التى تجابه الأمة المسلمة وتكيد لها، فكان من المناسب أن يعرّف الله المؤمنين بأحوال أولئك الأعداء.

ولكن هذا ليس السبب الوحيد.. فبنو إسرائيل أمة لها كتاب منزّل، والأمة الجديدة لها كتاب منزّل. وقام لبنى إسرائيل حكم فى الأرض ذات يوم، واليوم يقوم للدولة الجديدة حكم وتمكين فى الأرض. فيحذر الله سبحانه وتعالى الأمة الجديدة التى أخرجها لتكون خير أمة، وليضع فى يدها قيادة البشرية.. يحذرها من

أن تنحرف مثل انحرافات بنى إسرائيل. ولذلك يفصّل فى وصف انحرافات بنى إسرائيل فى شتى الاتجاهات تنبيها وتحذيرا. ثم يختتم الحديث عنهم في السورة بقوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]، ويتكرر هذا التقرير مرتين فى ختام الجزء الأول، الذى يشبه المفاصلة بين تلك الأمة التى خلت، ونزع منها التمكين بسبب انحرافاتها، وبين الأمة الجديدة التى منحت التمكين فى الأرض. وكأنما السياق يوجه للأمة الجديدة هذا السؤال: ماذا أنتم فاعلون بالعهد الذى عهد الله به إليكم بعد أن نزعه من تلك الأمة الضالة المضلة المنحرفة؟

ويأتى هذا التحذير فى مكانه، فى بدء قيام الدولة، فيتلى على المؤمنين التاريخ الأسود للأمة الضالة لكى تستقيم الأمة المسلمة ولا تقع فيما وقعت فيه تلك الأمة.

ومما يؤسف له فى واقعنا المعاصر أنه بالرغم من هذا التحذير القرآنى، فقد وقع النذير الذى أنذر به رسول الله ﷺ أمته: لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه! قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!(1).

وقد وقع ما وقع بقدر من الله، نعم، ولكن هذا لا ينفى مسئولية الأمة الإسلامية عن وقوعه، فقد ظلت تتراجع وتتراجع، حتى صار بها الأمر أخيرا أن تكون فى ذيل القافلة، وأن تقلد من حذرها الله من تقليدهم، وفتح أمامها صفحتهم السوداء لكى لا تقع فيما وقعوا فيه.

هذا الدرس ليس درسا تاريخيا، يعنى يتلى مرة للتوعية التاريخية وينتهى. إنما هو درس دائم مع هذه الأمة لإيقاظها دائما لكى لا تقع فيما وقع فيه الضالون المضلون. فإن كانت قد وقعت الآن فعليها أن تعود إلى مكانها الذى أخرجها الله له، وعليها أن تقلع عن تقليد اليهود والنصارى، وقد دخلوا جحر الضب بالفعل. وليس المقصود بطبيعة الحال جحر الضب الحسّى. إنما المقصود المعيشة الضنك التى تعيشها الجاهلية المعاصرة، زاعمة أنها تعيش الحضارة والتقدم، بينما هى تعيش أكبر نكسة فى حياة البشرية.. والأمة الإسلامية تتبعها فيما هى ماضية فيه..

---

(1) أخرجه مسلم.

فى مقدمة الحديث عن بنى إسرائيل يأتى قوله تعالى :

﴿ **يَبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ [البقرة : ٤٠] .

فأى عهد هو؟ ! نرجع مع السياق القرآنى خطوات إلى الوراء لنعرف قصة ذلك العهد . . نرجع إلى قصة خلق آدم : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . .** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

ويستلفت نظرنا فى السياق القرآنى أن هذه هى المرة الأولى التى يرد فيها ذكر الخلافة فى قصة خلق آدم . فقد ذكرت القصة فى مواضع كثيرة ، فى سورة الأعراف وسورة ص وغيرهما من السور المكية ، لكن ذكر الخلافة : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ يرد أول مرة فى سورة البقرة حين مُكِّنَ للمسلمين فى الأرض . فما المقصود؟ الله أعلم بمراده . لكن يرجح عندى أن ذكر استخلاف آدم مقصود هنا بمناسبة تمكين الأمة الإسلامية باعتبار أن آدم أول من استخلف فى الأرض ، وقد كان مؤمنا ، واليوم يستخلف المؤمنون من بنيه فى الأرض .

ويقول الملائكة الذين لا يردون لله أمرا : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وسواء كان عند الملائكة علم لدنى بأن البشر سيفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، أم كان البشر ـ كما يقول بعض المفسرين ـ خلفاء لجنس سابق أفسد فى الأرض وسفك الدماء ، فهم على أى حال يعلمون هذه الحقيقة ، وهى أن الخلق الجديد الذى يخبرهم الله عنه سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، فيتعجبون مما يخبرهم به رب العزة ، ويتساءلون ما الحكمة من خلق الإنسان وهذا شأنه؟ ! فيردهم الله إلى علمه الواسع سبحانه : ﴿ **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ .

﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . .** ﴾ [البقرة : ٣١] .

وهنا تبرز المزية التى خفيت على الملائكة حين تساءلوا ، وهى مزية اختص بها هذا الخليفة لم يسبقه إليها أحد من الكائنات كلها .

إن الله علمه ليقوم بدور الخلافة فى الأرض ، وقد سبق فى علم الله أن الخلافة

تحتاج إلى هذا العلم. وهنا يشدنا السياق القرآنى إلى مواجهة مع الجاهلية المعاصرة فى هذه القضية، هى امتداد فى الحقيقة لموقف معين وقفته الجاهلية الإغريقية، وظل كامنا فى الطبيعة الأوروبية حتى برز فى الجاهلية المعاصرة.

تقول أسطورة إغريقية قديمة اسمها «بروميثيوس سارق النار المقدسة» إن زيوس إله الآلهة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض، وسواه على النار المقدسة (والنار المقدسة فى الأسطورة ترمز إلى المعرفة)، ثم أهبطه إلى الأرض فى الظلام (إشارة إلى أن الإنسان فى بدء حياته كان جاهلا)، فأشفق عليه كائن أسطورى يسمى بروميثيوس (لعله يرمز إلى الشيطان) فسرق له النار المقدسة من زيوس (إشارة إلى أن الإنسان قد بدأ يتعلم). فغضب زيوس على الاثنين معا: على الإنسان (الذى أخذ يشارك الآلهة فى صفة العلم!) وعلى بروميثيوس (الذى سرق له النار من الإله!). ويلاحظ أن زيوس - مع كونه فى الأسطورة هو إله الآلهة - قد عجز عن استرداد النار المقدسة التى سرقت منه! فأما بروميثيوس فقد وكل به نسرا يأكل كبده طول النهار، وفى الليل تنبت له كبد جديدة فيرعاها النسر فى النهار.. هكذا فى عذاب أبدى! أما الإنسان - الذى يسمى فى الأسطورة إيبيميثيوس - فقد أرسل إليه مخلوقة أنثى (تسمى فى الأسطورة باندورا وترمز إلى حواء) لتؤنس وحشته، وأرسل معها صندوقا هدية، فلما فتح الصندوق إذا به مملوء بالشرور التى تناثرت من الصندوق وملأت وجه الأرض. وهكذا انتقم زيوس لنفسه بعد أن عجز عن استرداد النار التى سرقت منه!

خلاصة الأسطورة أن المعرفة التى حصل عليها الإنسان كانت غصبا مغتصبا من الإله على غير رغبة منه. فهو لا يريد للإنسان أن يعرف! يريد أن يبقيه فى الظلام، فلما توصل الإنسان إلى المعرفة غضب الإله عليه وعاقبه بتلك الشرور التى ملأ بها وجه الأرض، بعد أن احتال لذلك فى صورة مكرمة يقدمها إليه، وهو يضمر له الشر!

كيف تصور الأسطورة العلاقة بين البشر وبين الإله؟!

إنها علاقة حقد وكراهية.. فالإنسان يريد أن يتعلم ليصير إلها، والآلهة تضرب فوق رأسه كلما حاول أن يرفع رأسه!

هكذا تصور الأسطورة اليونانية العلاقة بين الإنسان وبين الله. ويقول جوليان هكسلى وهو عالم داروينى: إن أسطورة بروميثيوس ما تزال تعيش فى العقل الباطن الأوروبى، وما زال الأوروبى يشعر بأنه كلما تعلم يرتفع درجة ويهبط الإله فى حسه مقابلها درجة، حتى يأتى اليوم الذى يخلق فيه الإنسان الحياة فيصبح هو الله!

وله عبارة أخرى فى نفس الكتاب: «الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World» تقول: إن الإنسان قد خضع لله فى الماضى بسبب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة، فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله!

هذه الوقفة مع الجاهلية المعاصرة كانت لتفسير بعض أسباب الإلحاد المتفشى فى الغرب اليوم.. حقيقة إن وراءه دفع اليهودية العالمية التى تعمل جاهدة لنشر الإلحاد فى الأرض، ووراءه تاريخ الكنيسة المنفر، الذى نفر أوروبا من الدين.. ولكن وراءه أيضا هذا الأثر الغائر فى العقل الباطن، المترسب من الجاهلية الإغريقية، التى رجعت إليها أوروبا حين نزعت عنها القشرة النصرانية التى ارتدتها فى قرونها الوسطى المظلمة! فمن تلك الجاهلية القديمة استمدت الجاهلية المعاصرة هذا الشعور المعادى نحو الله سبحانه وتعالى، والإحساس بأن العجز والجهل فقط هو الذى يخضع الإنسان لله. أما إذا تعلم فإنه يرفع رأسه متكبرا عن عبادة الله، قائلا ـ كما يقولون ـ لقد شب الإنسان عن الطوق، ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله!

أما التوجيه الذى توجه إليه الأمة المسلمة فهو مخالف تماما.. إن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ليكون خليفة فى الأرض. والخلافة تعنى السيطرة والهيمنة والتمكين من عند الله. وهى ليست غصبا مغتصبا من الله سبحانه وتعالى كما جاء فى الأساطير اليونانية. وإنما خلق الإنسان ابتداء ليكون خليفة بمشيئة ربانية، والله هو الذى زوده بأدوات الخلافة، وأول الأدوات العلم: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ وهذا هو الأمر الذى من أجله أسجد الله الملائكة لآدم..

يقول تعالى ردا على تعجب الملائكة وتساؤلهم: ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾.. أعلم كيف خلقت هذا المخلوق وأعلم الدور الذى سيقوم به، وأعلم المواهب التى

سأهبها له ليقوم بدور الخلافة. وفى مقدمة المواهب هذا العلم الذى علمه إياه:
﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾.

أما الفكر الغربى القائم اليوم، المستنكف عن عبادة الله، فهو لا يريد أن يشكر الله على نعمه، إنما يقول كما قال قارون من قبل: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨]، فمن الذى يدفع الغرب إلى ذلك؟

إنه الشيطان الذى قال من قبل: ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

لا يريدون أن يشكروا الله. لا يريدون أن يعبدوه. ويفرحون بما عندهم من العلم. فماذا فعل علمهم حين سلط الله عليهم الإيدز؟ وهو عقاب من الله لهم على كفرهم وتبجحهم بالكفر:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

* * *

لبث آدم فى الجنة ما شاء الله أن يلبث حتى أغواه الشيطان هو وزوجه:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٣٦].

وحدثت الخطيئة وأهبط الله آدم وزوجه إلى الأرض قائلا له: ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦]. وهكذا أباح له قدرا من المتاع. ثم أوصاه:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

هذا هو العهد مع آدم أبى البشر. فهل هو أول عهد؟ لا! ليس الأول، إنما كان العهد الأول فى عالم الذر: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهذا العهد مع أبى البشر توكيد لعهد الفطرة، ومقتضاه هو الاستقامة على أمر

الله. فالله جعل الإنسان خليفة فى الأرض. فهل هو صاحب الملك حتى يتصرف فيه كما يشاء: يقول هذا رأيى! هذا تصورى! هذا مزاجى! هذه رغبتى؟!

كلا! إنما هو مستخلف فى الأرض. والمالك هو الله. فما وظيفة المستخلف؟

لقد خلق لتعمير الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

لكن على أى وجه يكون التعمير؟ يكون على المنهج الربانى - على أمر المالك؛ لأن المالك هو الذى وضع هذا المخلوق فى الأرض ليعمرها بإذنه، فعليه أن يلتزم بأوامر المالك. حين يقول المالك للفلاح خذ هذه الأرض وازرع فيها قمحا وازرع فيها شعيرا، فيجىء هو من عند نفسه فيقول: إن لى رأيا آخر فى الأمر. إنى أرى أن أزرع فى الأرض أنواعا أخرى غير التى أمر بها صاحب الأرض لأنها فى نظرى أجمل. هل يصح هذا؟ هذا حال الإنسان مع ربه، ولله المثل الأعلى. إن الله استخلفه فى الأرض وأذن له فى قدر من المتاع، ووجهه إلى عمارة الأرض، وزوده بالأدوات اللازمة لعمارتها، ولكنه اشترط عليه أن يعمرها بمقتضى ما يتنزل من الوحى..

هذا العهد يذكَّر به بنو إسرائيل، ثم يقال لهم: ﴿يَٰبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

فهل هو العهد مع أبيهم آدم عليه السلام، أم هو العهد الخاص بهم؟ إذ عهد إليهم أن يكونوا هم الأمة المؤمنة، ويمكن لهم فى الأرض، فآمنوا فترة من الزمن، ومكن الله لهم فى الأرض جزاء إيمانهم، ثم كفروا وكذبوا وساروا فى الطريق المعوج فنزع منهم التمكين..؟ كلا الأمرين جائز.

ثم يمضى السياق يسرد مخازى بنى إسرائيل وجرائمهم المتعاقبة. وينتهى الجزء الأول كما أشرنا بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، التى وردت مرتين متعاقبتين، المرة الأولى فى نهاية الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا

نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ . . ﴾ [البقرة ١٣٣ ، ١٣٤]، والمرة الثانية تعقيبا على قولهم : ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا . . ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

ولم يكن قصدهم الدعوة إلى الهدى باتباع الأنبياء . . إنما هو التعصب . . تعصب كل فرقة لمذهبها عنادا مع الحق . فيجيء الرد : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

ويستمر الكلام فى المفاصلة : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

ثم يصف عقيدة الأمة المسلمة بأنها صبغة الله : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

وهذا هو الفارق بين الأمة الجديدة والأمة السابقة . الأمة الجديدة تتبع صبغة الله ، وتصطبغ بها ، بينما تخلت عنها الأمة السابقة وانسلخت منها .

وينتهى الكلام مرة أخرى بالمفاصلة الأخيرة : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم يتجه الكلام بعد ذلك إلى أمة محمد ﷺ ، وبعد آية واحدة من تلك المفاصلة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

الدرس السادس

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

* * *

هذه أربعة دروس من سورة البقرة. والسورة مليئة بالدروس التربوية كما أشرنا من قبل، وهى التى نزلت لتنظم حياة المجتمع الإسلامى بعد قيام الدولة وبدء التمكين فى الأرض، وهى حياة جديدة غير التى كانت الجماعة الإسلامية تحياها فى مكة، برزت فيها مجالات جديدة وممارسات جديدة، وإن كانت كلها قائمة على ذات الركيزة التى قامت عليها حياة الجماعة فى مكة، ركيزة لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ولكن الجديد أن مقتضيات لا إله إلا الله قد أخذت تتسع وتتعدد، وتضاف إليها فى كل حين إضافات جديدة حتى تستوعب فى النهاية كل مجالات الحياة بالنسبة للأمة الإسلامية، لا فى واقعها الذى كان وقتئذ، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وقد ظلت تلك الإضافات تتتابع فى السور المدنية حتى أكمل الله دينه وأتم نعمته، ونزل قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً** ﴾ [المائدة: ٣]. وكانت سورة البقرة هى مستهل هذا الفيض من التشريعات والتوجيهات والتنظيمات فى شتى المجالات، وقد امتدت فترة تنزلها حتى حوت آخر آية نزلت من كتاب الله - على القول الراجح - وهى قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ولا يتسع المجال هنا - كما أشرنا من قبل - لاستيعاب الدروس التربوية فى سورة البقرة، وحسبنا فى هذا المجال أن نلتقط لقطات متفرقة نختتم بها هذه الدروس.

* * *

الدرس الأول فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾.

وهى آية واحدة ولكنها فى الحقيقة تحمل دروسا شتى.

إن إبراهيم عليه السلام ابتلى بكلمات من ربه. وكلمات الله أوامر وتكاليف يلقيها الله على العبد لينظر ما يفعل فيها: يطيعها أم يطيع هوى نفسه. والآية تشير إلى ابتلاء خاص بسيدنا إبراهيم عليه السلام، ولكنه جار على القاعدة العامة وهى أن البشر جميعا يبتلون، بل إنهم خلقوا للابتلاء: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً** ﴾ [الإنسان: ٢].

فالابتلاء قدر مقدور على بنى آدم جميعا. يمرون به من خلال أوامر الله وتكاليفه، لينظر الله فى سلوك كل واحد منهم: هل استجاب لأوامر الله؟ هل وفّى بتكاليفه، أم غلبته شهوات نفسه فعصى وانحرف عن الطريق؟

ولقد كان إبراهيم عليه السلام من أئمة المبتلين، وكان أقسى ابتلاء مر فيه حين أمره سبحانه وتعالى أن يذبح ولده الحبيب إسماعيل، الذى رزق به بعد فترة طويلة من الحرمان، فهو حبيب إليه لا كمحبة طفل عادى، بل محبة مضاعفة. وهذا الولد الحبيب الذى يتعلق به قلبه يؤمر فى الرؤيا أن يذبحه، ورؤيا الأنبياء وحى، فيقول لولده: ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ** ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فيستجيب إسماعيل، ويرتفع إلى المستوى الذى يريده الله منه، فيقول لأبيه: ﴿ **يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ويرتفع النبيان: إسماعيل وأبوه ـ أبو الأنبياء ـ إبراهيم عليه السلام إلى قمة يندر أن ترتفع إليها البشرية فى أى مستوى من مستوياتها، فيستجيبان لأمر الله.

﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا** ﴾ [الصافات: ١٠٣]. يعنى استسلما لأمر الله ﴿ **وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أى استعدا لتنفيذ الأمر الربانى ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا** ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

لقد صدق إبراهيم مع ربه، وأعد نفسه للإجابة، وبدأ ينفذ بالفعل. فأعفاه الله، وفدى إسماعيل عليه السلام ﴿ **بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الصافات: ١٠٧].

وما كان الله يريد أن يحرم إبراهيم عليه السلام من ولده الحبيب. إنما كان يريد فقط أن يبتليه.. أن يختبره.. يختبر قلبه: هل قلبه مستقر على الطاعة؟ هل الإيمان راسخ فى قلبه إلى حد أن أى أمر يصدر من الله سبحانه وتعالى فهو مجاب عنده، أم يتوقف ويتلكأ، ويقول: نعم، أعبدك يا رب، ولكن اترك لى هذه أو تلك فهى عزيزة عندى؟!

ولقد ارتفع إبراهيم عليه السلام إلى ذروة ربما لم يرتفع إليها بشر غيره، فكافأه سبحانه وتعالى أكبر مكافأة يمكن أن تكون فى الحياة الدنيا:

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ .

وهل فى الدنيا مكانة أو منصب أكبر من أن يكون الإنسان إماما للمتقين يهديهم إلى الخير؟

وهنا تحركت فى قلب إبراهيم عليه السلام رغبة بشرية : أن يمتد هذا الخير الذى أنعم الله به عليه فى ذريته : ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾؟ .

يعنى : أيسرى هذا العهد فى ذريتى فتكون ذريتى أئمة للناس على امتداد تاريخ البشرية؟!

والدرس هنا هو الإجابة الربانية على هذا الطلب .

إن إبراهيم هنا فى موضع التقريب والمكافأة . يقول تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٥] وأى مقامٍ أعظم وأقربُ من أن يكون بشر خليلا لله سبحانه وتعالى مصطفًى عنده؟

فهل جاملته سنة الله وهو فى هذا المقام العظيم؟ هل قال الله له : ما دمت قد اجتزت الاختبار بهذه الدرجة العالية الرفعية من النجاح فإنى سأجعل الإمامة فى ذريتك مهما فعلوا ، ومهما كان حالهم فى الأرض؟ كلا! إنما جاءت الإجابة الربانية حاسمة ، فقال سبحانه : ﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى أن العهد فى ذريتك يا إبراهيم ما استقاموا على الطريق . أما إن انحرفوا فلا عهد لهم عند الله .

هذا درس تربوى عظيم ، مفاده أن سنة الله لا تحابى ولا تجامل ولا تتخلف : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣] .

هذه السنن الربانية لا تتغير ، وعلى الناس أن يسيروا وفق مقتضاها ولا يتوقعوا من السنة أن تميل لتغطيهم وهم منحرفون! فلنتصور جدارا قائما يستظل الناس بظله ، فماذا يفعل الناس ليستمتعوا بظله؟ عليهم أن يأتوا إليه وينضووا تحته ، ولا يتوقعوا ـ وهم بعيدون عنه ـ أن يميل الجدار ليظللهم وهم بعيدون عنه!

والسنة الربانية تقول إن الله لا يمكّن لهذه الأمة إلا أن تكون عابدة له ، مخلصة فى عبادتها غير مشركة به ، ولا منحرفة عن طريقه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

* * *

هذا الدرس درس رئيسى فى كتاب الله، يجىء فى صور شتى، وتمتلئ به توجيهات القرآن الكريم. وسنجد بعد مجموعة من الآيات فى سورة البقرة درسا آخر يؤكد هذا المعنى فى صياغة جديدة. وإن من إعجاز هذا الكتاب أنه يعطى المعنى مرة ومرة، فلا يحس الإنسان بالتكرار، لأن المعنى يعرض فى كل مرة بأسلوب جديد وصياغة جديدة، فهو متنوع متجدد كثمار الجنة: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة: ٢٥].

فى الدرس الجديد نجد قوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

إنه نفس الدرس، ولكن بتفصيل أكثر وبصياغة جديدة.

وإنى لأحس وأنا أقرأ القرآن كأن الآية منزلة لنا نحن الآن، ترقب أحوالنا وتربينا وتوجهنا.

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ ﴾ ـ ليس حقيقة الإيمان ـ ﴿ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾.

ليس هذا الدين دين أشكال ورسوم. ليس دين طقوس. ليس دين شعارات ترفع، إنما هو واقع سلوكى يطبق فى واقع الأرض، ما لم يأت به الإنسان، ويحققه فى عالم الواقع فإنه لا يكون على الوجه الذى يريده الله حقا. ليس البر أن تتخذوا

أشكال الإسلام . ليس البر أن تأخذوا المظهر الذى أمر الله به ـ وهو من أمر الله ولا شك ـ ولكنه ليس مقصودا لذاته ، إنما المقصود حقيقة هذا المظهر . الحقيقة السلوكية التطبيقية الواقعية :

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

ولقد سبق فى الدروس الماضية أن تحدثنا عن الإيمان بالله واليوم الآخر وأثرهما فى النفس البشرية .

﴿ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ ﴾ .

الكتاب المنزل من عند الله ، ويشمل القرآن المنزل على رسول الله ﷺ وكل كتاب أنزل من قبل .

﴿ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ .

وعلى رأسهم محمد ﷺ ، مع الإيمان بهم جميعا ، أنهم أرسلوا من عند الله ، وأرسلوا بـ «لا إله إلا الله» .

ومقتضى الإيمان بهذا كله أن يطاع الله ويطاع رسوله ﷺ . ولا يكفى الحب الوجدانى الذى تهيم فيه القلوب بينما السلوك مخالف لأوامر الله وسنة رسوله ﷺ .

﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ .

الإنفاق فى سبيل الله عنصر مهم من عناصر الإيمان ، لا يكمل الإيمان إلا بممارسته سلوكا واقعيا ، يخرج الإنسان قدر طاقته عن جزء من ماله ليعطيه لذوى الحاجات فى المجتمع ، فيعيش المجتمع كله حياة كريمة ، وترتبط القلوب برباط التعاون والحب ، بدلا من البغضاء والحقد .

﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ ﴾ .

ما الفرق بين إقامة الصلاة والصورة المذكورة في أول الآية ، التى أخرجها الله من دائرة البر : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .. ﴾ ؟

تولية الوجه قبل المشرق والمغرب هى المظهر، لكن إقامة الصلاة - إقامتها لا مجرد أدائها - معناها توفيتها حقها من الخشوع، بالقلب والعقل والجوارح. والصلاة فى الإسلام تشمل كيان الإنسان كله: جسمه وعقله وروحه، لا يتخلف منها شىء عن الإخبات لله والتوجه الصادق إليه.

﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

ولقد ذكرت الآية من قبل إيتاء المال ذوى القربى واليتامى والمساكين.. إلخ. ولكن الزكاة فريضة محددة معروفة، يخرجها المسلم من ماله لتنفق فى مصارفها المعروفة. وذكرها مع ذكر الإنفاق المفتوح الذى يتطوع فيه الإنسان بما تجود به نفسه، إيحاء بأن هذه غير تلك، وأن إخراج الزكاة - وإن كان يؤدى الفرض المفروض - فإنه لا يعفى المؤمن الحق من الإنفاق غير المحدد، بل يستحب له ذلك تحقيقا لصدق إيمانه، كما روى عن رسول الله ﷺ: «فى المال حق سوى الزكاة».

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

سبحان الله! وهل الوفاء بالعهد جزء من الإيمان؟! نعم! ولقد كان هذا من بدهيات الإيمان فى حس المسلمين الأوائل. كانوا يشعرون بأن وفاءهم بعهودهم من تحقيق إيمانهم فى واقع الأرض. فلما انحسر مفهوم العبادة فى حس المتأخرين، خرج الوفاء بالعهد، وخرجت الأخلاق، وخرجت أعمال كثيرة من مقتضى الإيمان ومقتضى العبادة، وظن الناس أنهم إن قالوا بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد حازوا الإسلام فى الدنيا وحازوا الجنة فى الآخرة. وظنوا أنهم إن أقاموا الشعائر بأى وجه من الوجوه، يعنى ولّوا وجوههم قبل المشرق والمغرب فقد قاموا بالعبادة. وما كان هكذا فهم الجيل الأول الذى رباه رسول الله ﷺ على عينه.

﴿وَالصَّابِرِينَ﴾.

والصبر كذلك من الإيمان. نعم! إن الصبر هو حقيقة الإيمان. الصبر على التكاليف الربانية؛ الصبر على مقتضيات لا إله إلا الله؛ لأنها ذات تكاليف.

إن هذا الدين لا يقوم حتى يقوم أهله بتحقيق القصد الذى أخرجوا من أجله، وأنزل هذا الدين من أجله، وهو إقامة حياة الناس بالقسط:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وهذا أمر يحتاج إلى بذل الجهد، والقيام بأعمال تحتاج إلى الصبر، فإن النفس البشرية متفلتة من التكاليف إذا تركت على هواها، ويحتاج الأمر إلى الشد على النفس وعلى شهواته المحببة إليها:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٤ـ١٧].

هذه نماذج من البشر ترتفع على لذائذ الحس وعلى متاع الحياة الدنيا، لا تحريما للمتاع، ولكن ارتفاعا يجعلهم يتذوقون ما أحل الله على طريقة البشر لا على طريقة الذئاب الجائعة التى تنهش نهشا. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾.

وتلك هى المواطن التى تحتاج إلى الصبر، ويمتحن فيها الإيمان.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾.

صدقوا فى دعواهم أنهم مؤمنون.

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

وهذه هى حقيقة التقوى، وليس المظهر الخارجى من خفض الهامة وخفض الصوت. فالتقوى ـ لغة ـ هى الاتقاء. والذى يُتَّقَى هو غضب الله وسخطه، ولا يكون ذلك إلا باتباع أوامره والانتهاء عما نهى عنه.

* * *

ونتنقل إلى درس آخر . . .

أشرنا فيما سبق إلى أن سورة البقرة كانت أول سورة أنزلت فى المدينة ، لتنظيم حياة المسلمين بعد أن قامت لهم دولة ومكنوا فى الأرض . فنزلت التشريعات تباعا . فجاء الأمر بالصوم ، وجاء الأمر بالحج ، وجاء الأمر بالجهاد ، وفصلت بعض المعاملات التى يتعامل بها المسلمون فى مجتمعهم الإسلامى ، ومن بين ذلك كانت الأحكام الخاصة بالطلاق ، وقد نزل منها فى سورة البقرة عدة أحكام .

والدرس الذى نقف عنده هنا هو أنه فى وسط السياق الذى يتكلم عن الطلاق ، وعن علاقات الأزواج بعضهم ببعض ، أحياء وأمواتا ، تجىء آيتان فى وسط السياق عن موضوع مختلف تماما ، هو موضوع الصلاة :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٣٧ ـ ٢٤٠] .

وواضح أن السياق قبل الآيتين المتعلقتين بالصلاة وبعدهما سياق متصل فى موضوع العلاقات التى تقوم بين الأزواج ، وأن آيتى الصلاة موضوع مختلف عن السياق .

وقد نعجب بمنطقنا البشرى لماذا جاءت هاتان الآيتان عن الصلاة فى وسط أحكام عن الطلاق والعلاقات الزوجية ، وكأنما يقطع السياق قطعا لتوضع فى وسطه هاتان الآيتان . ولكن منطقنا البشرى ليس هو المحكّم فى الأمر . فقد تعودنا أن نقيس الأمور قياسا عقليا ، وأن نقسم الموضوع حين نكتب إلى عناوين ، فنستوفى كل عنوان منها قبل أن نبدأ الحديث عن الآخر . ويقال لنا فى البحوث العلمية هكذا ينبغى أن يكون البحث العلمى ، وإذا أدخلنا معنى فى معنى آخر قيل لنا : لقد

أفسدتم البحث العلمى! ولكن الكتاب المنزل ليس منزلا على هوى مقاييسنا نحن واعتباراتنا التى تواضعنا عليها، وإنما يتنزل بحكمة. والحكمة قد تذكر نصا فى السياق وقد لا تذكر. وفى هذه الحالة نجتهد نحن لاستنباط الحكمة وإن كنا لا نقطع بها مادامت لم ينص عليها.

وفى السياق الذى ذكرناه لم ينص على الحكمة، فنحن نجتهد فى استنباطها.

لعل الحكمة فى ذلك أن الصلاة هى الصلة التى تصل القلب البشرى بالله فيخشع ويخبت ويطيع. وأعمق ما تكون الصلة بين العبد والرب فى لحظة الصلاة، وفى لحظة السجود من الصلاة بصفة خاصة.. الصلاة الحقيقية الخاشعة، لا مجرد تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب. وهذه الأحكام الواردة فى شأن العلاقات الزوجية تحتاج فى تنفيذها إلى تقوى الله، فإن القلوب تزيغ وتنحرف ما لم تكن تقوى الله سبحانه وتعالى هى التى تمسكها وتوجهها، وخاصة فى الأمور التى يدخل فيها هوى القلب حبا أو بغضا، ومن أبرزها العلاقات الزوجية التى تكوّن المشاعر القلبية ركنا مهما فيها.

فهنا يوجه القلب المؤمن إلى الصلاة، والمحافظة عليها، وإقامتها، وما تستلزمه الإقامة من الإخبات والخشوع والدعاء والذكر. ولا نستغرب حين يقطع سياق الآيات بهذا التوجيه إلى الصلاة للشدّ على القلب البشرى، ليتقى الله فى تنفيذ هذه الأحكام الربانية، ويقوم بتنفيذها على الوجه الذى يرضى الله.

أرأيت إلى إنسان يعمل على آلة معينة، ثم فى وسط العمل يشد على صمام معين فيها، ثم يعود إلى العمل على الآلة. والآلة هنا هى القلب البشرى، يوجّه إلى أحكام ربانية تجرى بمقتضاها الحياة الصحيحة السليمة الهادئة المستقرة، ثم يشدّ على القلب البشرى بذكر الصلاة والحرص عليها وتوفيتها حقها، ليظل القلب متصلا بالمعين الدائم الذى يحثه على طاعة الله.

* * *

ولعلنا الآن نقترب من ختام السورة، ومن ختام الدروس المنتقاة من دروسها.

وكثيرا ما نلاحظ فى سور القرآن، والطوال منها خاصة، أن البداية والنهاية متناسقتان مترابطتان. فما يذكر فى أول السورة يكون بمثابة ملخص للموضوعات

التى تتناولها السورة تفصيلا بعد ذلك، وما يجىء فى الخاتمة يكون بمثابة التوكيد على محتويات السورة. ومن ثم يترابط البدء والنهاية ويتناسقان.

فلنتذكر مدخل السورة:

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

كان هذا هو افتتاح السورة، وأشرنا فى الدرس الماضى إلى أن هذه الأمة وهى تعد لقيادة البشرية قد أخلى قلبها من الحقد على من سبقها، لأنها تؤمن بما أنزل إليها وما أنزل من قبلها. كما أشرنا إلى صفة الإيمان بالغيب، والإيمان باليوم الآخر فى تكوين هذه الأمة وإعدادها لمهمتها.

والآن نجىء إلى ختام السورة.

أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية بشأن الحساب فى الآخرة:

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فكبر الأمر على الصحابة رضوان الله عليهم، وصاروا فى هم وكرب شديدين، وقالوا: أنّى لنا هذه؟ إذا كنا نحاسب على الصغيرة والكبيرة، وما أبديناه وما أخفيناه فأنّى لنا النجاة؟!

إنهم يخشون الله ويخافون حساب يوم القيامة. ويخشون أن يعجزوا عن تنفيذ أوامر الله كما ينبغى لهم. لذلك أصابهم الهم والكرب عند نزول هذه الآية، من شدة حساسية قلوبهم ويقظة ضمائرهم.

عندئذ وجهوا ألا يسلكوا هذا السلوك ـ سلوك عدم الاطمئنان ـ فإن مقتضى الإيمان أن تطمئن القلوب بذكر الله: **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾** [الرعد: ٢٨].

والخشية من الله ومن يوم الحساب مطلوبة، وهى من علامات الإيمان الصادق. ولكنها إن تجاوزت حدها أحدثت قلقا فى النفس ووسواسا يفسد طمأنينتها. ولا يريد الله لعباده المؤمنين أن تقلق قلوبهم، أو أن يفسد القلق حياتهم. لذلك وجههم على يد رسول الله ﷺ ألا يسلكوا سلوك أمم سابقة استعظمت التكاليف، وقالت كيف نقوم بتلك التكاليف الزائدة عن الحد - والمقصود هنا هم اليهود، وهذا ديدنهم، وقد فصلت السورة كثيرا من مواقفهم، وإعراضهم، ونكولهم عن حمل التكاليف - إنما يسلموا الأمر لله، ثم ينظروا بعد ذلك ما يكون من فضل الله ورحمته وكرمه وغفرانه. ووجههم الرسول ﷺ أن يقولوا: «سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فما ذلت بها ألسنتهم حتى أنزل الله:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

لا تخافوا من التكاليف. إن الله لا يكلف البشر إلا ما فى وسعهم. وكل ما كلفهم إياه فهو داخل فى حدود طاقتهم التى يعلمها الله الذى خلقهم ويعلم كل شىء عنهم: **﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** [الملك: ١٤].

والحساب آت يوم القيامة لا ريب فيه، تحاسب فيه كل نفس عما أسلفت، فيحسب لها ما أحسنت فيه وتؤاخذ بما وقعت فيه من سيئات.

ولكن - مع إقرار الحساب - يوجه المسلمون أن يدعوا الله أن يغفر لهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ماداموا متوجهين إليه. فهو يعفو عن كثير:

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وقد استجاب الله لهذه الأمة فرفع عنها الخطأ والنسيان وما استكرهت عليه.

﴿ رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ .

والإصر هو الثقل والغل والقيد . . وكلها حملت على بنى إسرائيل بسبب سوء أفعالهم .

﴿ رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ .

وهو ما كانوا يفزعون منه ويخشون ألا يقدروا على حمله .

﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ .

وهو دعاء خاشع لله أن يرفق بهم ويرحمهم وهم أهل له ، والله ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦] .

﴿ أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

الذين ورد ذكرهم فى مفتتح السورة ، وفصلت السورة مواقفهم من الأمة المسلمة ، وأخبر الله المسلمين عنهم أنهم لا يكفون عن حربهم :

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

إذا تذكرنا مدخل السورة ونحن الآن فى ختامها نجد الخاتمة تأكيدا لما جاء فى أولها .

ورد فى أول السورة فى وصف المؤمنين : أنهم ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ . . ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ .

ويرد فى ختامها : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ .

وورد فى أولها ذكر المنافقين ـ اليهود ـ وجاء فى بيان أعمالهم فى أثناء السورة أنهم ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة : ٩٣] ويرد هنا فى ختام السورة توجيه المؤمنين أن يقولوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ .

ومنذ بدء السورة ـ وفى أثنائها ـ ترد المفاصلة بين الأمة المؤمنة والأمة السابقة ـ

اليهود - فى صفات كل منهما وسلوكها وموقفها من الهدى الربانى . وفى الختام يرد التفريق مرة أخرى :

﴿ ربَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ .

وتختتم السورة كلها بهذا الدعاء الخاشع المنيب ، الذى ينطلق من قلوب أولئك المتقين ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .

ندعو الله أن يعيد هذه الأمة إلى صراطه المستقيم ، وأن يعينها على القيام بما فرضه عليها من التكاليف ، وأن ينجز لها ما وعدها به من استخلاف وتمكين وتأمين حين تستقيم على الطريق .

وإنّا لفى الطريق إن شاء الله .

اللهم نور بالقرآن قلوبنا ، واجعله شاهدا لنا لا علينا ، واجعله شفيعنا إليك ، وأظلنا بظلك يوم لا ظل إلا ظلك ، وتقبل منا إنك أنت الرءوف الرحيم .